السيد عمر*

مقاربة إسلامية في بناء مفهوم الأمة

(الصفحات ٣٧- ٧٨)

ملخّص

هذه الدراسة تستهدف الكشف عن مفهوم الأمة في القرآن الكريم، للردّ على الفكرة المستوردة التي تعتبر القومية مرادفة لمفهوم الأمة، فذلك ما لايتناسب مع الدلالة اللغوية لمفهوم الأمة في اللغة التي أنزل الله بها القرآن، ويرى الباحث أن مفتاح الخروج من الوحدة التي تردى فيها العالم الإسلامي هو: استعادة مفهوم الأمة وإعادة بنائه من مصادره الأصيلة.

ويستعرض الباحث مفهوم «الأمة» في وسطيتها وشهادتها ووحدتها، ودلالات هذه الخصائص.

تنطلق هذه المقاربة الأولية في بناء مفهوم الأمة من منظور إسلامي من تحديد دلالاته في لغة الضاد، واستقراء مضامينه ونسق منظومة خواصه عبر التحليل السياقي له في القرآن الكريم.

أولاً: المضامين اللغوية لمفهوم الأمة:

تورد معاجم اللغة العربية في مادة (أمم) التي هي جذر مفهوم (الأمة) معاني عديدة

* - باحث مصري صاحب كتاب *خارطة المفاهيم القرآنية*.

من أهمها: أم الشيء: أصله، والأم: الوالدة، والعلم الذي يتبعه الجيش، ورئيس القوم، والجماعة، والطريقة، والدين، والجنس من الحيوان، والقامة، والنعمة والقصد، والإمام: خشبة البناء التي يسوى عليها البناء، والطريق، والذي يعتد به، والكتاب المبين[١].

ويبين لسان العرب أن (الأم) هو: القصد والتعمد والتوخي لشيء دون سواه، والدليل الهادي لأنه قاصد، والإِمَّة: الحالة، والأمة: الشرعة والدين والطريقة والسنة المتبعة والنعمة والملك وأهل الدين، والنعمة والحال والشأن ونضارة العيش والنعمة والعيش الرضي[٢]. فالأمة ناظم (طريقة وسنة ودين ودليل هاد) من توخاه بمنظومة قصده (اتبع طريقه وصراطه المستقيم، ولم يتبع السبل المفرقة عن سبيله) تحددت به قامته وصبغته، وجنى ثمرته (النعمة والشأن والعيش الرضي والملك)، وهذا الناظم مرهون بمضامين مدخلاته، وهو ليس من الأمور التكوينية، بل هو من الأمور التكليفية، وبالتالي، فإنه عرضة للتجسد في الواقع بدرجة تقترب أو تبتعد من المثال.

وبما أنه يتأسس على الاختيار الإنساني فإنه يعرف التنوع والخطأ والنسيان والاستكراه والدورات، ويرتبط بالتالي بالحين، ثم إنه يعرف أنساقًا لكل منها نظام تراتبي رئيسه هو: (أمه). والأمة ناظم: فكل شيء انضمت إليه أشياء فهو أم؛ لذا سميت مكة أم القرى لتوسطها للأرض، وسمى رئيس القوم أمًا لهم لأنه جامع أمرهم[٣]، ويسوى ابن سيده بين مفهومي الأمة، والإمام، فالأمة دليل لأفرادها، وإمام كل شيء: قيّمه ومصلحه، والمتقدم عليه، والمؤتم به والطريق والدليل والمثال وما يمتثل عليه، وهو مفهوم محايد، العبرة بمضمونه، فالأئمة هم كل من يؤتم بهم سواء كانوا على الصراط المستقيم أم كانوا ضالين[٤]، فكما أن للإيمان أئمة، فإن للكفر أئمة.

وتفيد الدلالات اللغوية لمفهوم (الأمة) أن لفظ (أمة) قد يطلق على: القرن من الناس، والجيل والجنس من كل كائن حي، وأمة كل نبي هم: من أرسل إليهم من كافر ومؤمن، وكل قوم نسبوا إلى نبي وأضيفوا إليه فهم أمته، وأمة محمد(ص) هي كل من أرسل إليه ممن آمن به أو كفر.

وحين انتقل ابن منظور إلى بيان الأمة ناظم قد تكون نواته شخصًا واحدًا أشار إلى أن الأم كالأمة، وكل من كان على دين الحق مخالفًا لسائر الأديان فهو أمة وحده، وكان إبراهيم ـ عليه السلام ـ أمةً وإمامًا[٥]، رأيناه يرد لفظ (الأمة) إلى (الأم) التي تأبى التعدد، ويقصر وصف الفرد بالأمة، على المستقيم على دين الحق؛ لأنه قطب جاذب بالضرورة، ولأن أساس الجمع الذي سيطبقه هو: عدم الإكراه في الدين، بما أن أمته ستشمل ـ على ما سلف القول ـ كل من أرسل إليه ممن آمن به أو كفر، وكل من نسبوا إليه، وأضيفوا إليه بحكم إيمانهم أو كونهم رصيدًا كامنًا لدعوته.

والآصرة قوية بين مفهوم الأمة والدين، ويقال فلان (ذو أمَّة) أي ذو دين، والأمة: معلم الخير، والمتفرد بدين، والجامع للخير، والمعلم والعالم، ووحدة المقصد وطلبه، والطاعة، والجماعة[٦].

ومع أننا سنرجئ تحليل الشجرة المفاهيمية لمفهوم الأمة، وفي مقدمتها الدين، إلى معالجة مفهوم الأمة في السياق القرآني، فإننا نلاحظ بشكل أولي أنه من مضامين قول العرب (أمة الرجل): وجهه وقامته (أنها هي الوزن المعنوي له) وأمة الوجه: سنته، وهي معظمه ومعلم الحسن منه (انها سمته وعلامته وقيمته) والأمة: المعلم والعالم (لأنها لا تقوم إلا على بينة) والأمة: الطاعة (لأنها سمته وعلامته وقيمته) والأمة: المعلم والعالم (لأنها لا تقوم إلا على بينة) والأمة: الطاعة (لأنها ناظم نظامه هو الدين وليس البشر، وغايته هي جمع الخير في عنصرها البشرى، وتحقيق اجتماعهم عليه وتعلمه وتعليمه كمقصد واحد) وتأمم فلان أمًّا: اتخذها لنفسه أمًا، و(الأمة بذلك هي الأصل الذي يتفرع عنه غيره، وهي تلد وترضع وتحتضن، ويتلازم البر والإحسان إليها والتوحيد، ولا يسبق الإحسان إليها إلا هو).

وأصل مادة (أمم) كله من القصد وهو الوسط وعدم تجاوز القدر (لأن التطرف مفرق، ونواة مفهو الأمة الجذب والجمع)، وكل معاني (القصد) تفيد التلاحم والتوجه لغاية، فالعرب يقولون: قصدت فلانًا وأممته ويممته واعتفيته (طلبت فضله ومعروفه)،

واجتديته (طلبت عطيتـه) ووردت شـرعة نـداه، واتـصلت ببابـه، وتمكـست بمعروفـه، ووصلت حبلي بحبله، ورفعت إليه حاجتي، واستحملته نفسي وأمري[٧].

ويقال: قصدت الشيء وله وإليه: طلبته بعينه، وقصد في الأمـر: توسـط ولم يتجـاوز الحد، وهو على قصد: على رشد، وطريق قـصد: سـهل[٨]، فالقـصد يـرتبط بالوسـطية وبطلب شيء بعينه مما يعني التحرك على بينة، والرشد، واليسر، ويرتبط مفهـوم الأمـة ـ في دلالاته اللغوية ـ بالأصالة والفطرة. فالأمي هو المنسوب إلى الأم، ويطلق علـى مـن لا يقرأ ولا يكتب نسبة إلى الأم؛ لأنه بقى على ما ولدته عليه أمه، كما يـرتبط المفهـوم بالقدرة، فالإمامة لغة هي: القـصد والقـدوة والاتبـاع والتأسـي، وتحـصيلها يحتـاج إلى الولاية والسلطة والتمكين[٩].

ويبين الكفوي أن الأمة هي: كل جماعة يجمعها أمر أو دين أو زمان أو مكان واحـد سواء كان الأمر الجامع تسخيرًا أم اختيارًا، ومعنى ذلك أن الاجتماع علـى أمـر جـامع يكسب الجماعة وصف أمة، فالجيل من الناس أمة، وأهل كل دين أمة، واجتمـاع مـن شاهدهم موسى عند ماء مدين في مكان واحد، (الأمر الجامع لهم هو سـقاية أغنـامهم) أكسبهم نعت (أمة)، وكل دابة في الأرض أمة تسخيرًا، والبشر أمم (بأمر جامع اختيارًا).

ويجلى الكفوى الآصرة بين مفهوم الأمة والدين جاعلاً الموقـف مـن الـدين أساسًـا لتصنيف الأمم حيث يعرف الأمر بالمعروف بالإسلام، والنهى عن المنكر بعبادة الأوثـان، ويتحدث عن: أمة الإجابة: كل من آمن بـنبي، وأمـة الـدعوة: كـل مـن بلغتـه دعـوة النبي(ص)،ويشير إلى اختصاص مكة باسم: أم القرى، فهو عَلَم لمكة، ويعلل ذلك بأنهـا (مأثرة إبراهيم ومنشأة إسماعيل ومفخرة العرب وسرة جزيرتها، وقبلة جماعاتها ومـأمن خائفها وملاذ هاربها وحرم الله في أرضه وأم قرى عباده وأول بيت وضع للناس)[١٠].

وهكذا نصير أمام مفهوم للأمة الإسلامية نواته هي الإسلام وهو مـن الله، ومركزهـا في الأرض هو أم القرى، وهي أيضًا حرم الله. والهمزة والميم ـ فيما يقوله ابن فـارس ـ أصل واحد يتفرع عنه أربعة أبواب، وهي: الأصل والمرجـع والجماعـة والـدين، وهـذه

الأربعة متقاربة، وبعد ذلك أصول ثلاثة هي: القامة والحين والقصد. فالأمة الدين، ويقال: لا أمة له، أي لا دين له(١١).

ومن الواضح أن العنصر البشري الوحيد في هذا المفهوم هو الجماعة وهي محكومة بالأصل الذي تعود إليه وبالمرجع، والحكم في أمرها كله هو الدين، وهو يعود بها إلى وحدة الأصل البشري (بخلق الله البشر من نفس واحدة، خلق منها زوجها وبث منهما كل البشر، وهي وحدة تقرر وحدة المستوى أمام الله إلا بفضله وبالتقوى، والتسوية في الدنيويات وإمكانية الخطأ، وحتمية المراجعة) ووحدة المرجع (حيث البداية من الله والمآل إليه بما يولد استقامة المعايير ومنظومة الجزاء) ووحدة الدين (وترسي مبدأ حق الاختلاف وعدم الإكراه في الدين) وتقتضي وحدة الدين الصحيح وحدة أمة الإجابة من عهد آدم، بحيث يتجاوز المفهوم حدود الزمان؛ ليشمل الدنيا والآخرة، في حين تتفرق السبل بأمة الدعوة، في الحياة الدنيا.

ومع ذلك فإن كل جيل أو قرن من الناس يشكل (أمة) من أمة الإجابة الواحدة أو من إحدى أمم الدعوة، وبذا نصير أمام دلالة لغوية لمفهوم الأمة تربطه بأصل ومرجع ودين لجماعة ذات مقصد واحد، مما يولد هيئة أو حالاً لها، لأمد معين(١٢).

ثانيًا: البنية القرآنية لمفهوم الأمة:

يقتضي التحليل المفاهيمي السياقي لمفهوم الأمة في القرآن تحليلاً لكل من: **الأمة والجماعة والدين والقصد والمرجع، والأصل والحين والقامة**، في سياق القرآن الكريم كله بوصفه جملة واحدة، وتجلية حقولها الدلالية. ولا تطمح هذه الدراسة في ذلك، بل تقف عند حد التأسيس الأولى له بتحليل سياقي لعينة تشمل مفهوم (الأمة) وحده في السياق القرآني القريب المباشر الذي جاء به في مواضعه البالغة أربعة وستين موضعًا على سبيل الحصر، مع عدم التطرق لمرادفاته ومضاداته إلا بقدر ورودها في تلك المواضع وتجليتها له(١٣)، وفيما يلي رصد أولى للسياق القرآني القريب والمباشر للفظ الأمة.

فلقد وردت أمة في أول موضع في القرآن بثلاث صيغ: (**أمة مسلمة**)، و(**أمة وسط**)، و(**أمة خلت**)، بسورة البقرة، الأولى بالآية ١٢٨، والثانية بالآية ١٣٤، والثالثة في الآيتين ١٤١، ١٤٣، وجاءت (أمة مسلمة لك) في سياق يربط الإمامة بالابتلاء بأوامر، وتكليفات، والوفاء والتوفية بها، والإمامة إنما هي في إقامة أمر الناس بالدين ولا ينالها بشرعية إلهية إلا العادل، ويصير الفرد أمة وتثبيت الأمة ودوامها على أمر الله مرهون بتوفيقه، وهي ليست من الأمور التكوينية بل هي أمر تكليفي، أساس الابتلاء فيه هو: الطاعة عن اختيار. فإبراهيم ـ عليه السلام ـ طلب التكليف من الله ـ تعالى ـ له ولابنه إسماعيل، ورغب في فتح باب التكليف على نفسه ولم ير فيه إلا طهرة له ولذريته، وهو قمة في الطاعة عن اختيار(١٤). وطلب من الله أن يجعل أساس إمامته هو: منهج الله في الأرض، وأن يكون هو وابنه نواة لـ (أمة مسلمة لله).

ويوضح الأصفهاني أن للأمة أنساقًا تعود بالفرع إلى أصله الأول أو تصل الأصل بفروعه، فالأم بإزاء الأب هي الوالدة القريبة التي ولدته والبعيدة التي ولدت من ولدته.

ولذا قيل لحواء هي أمّنا، وإن كان بيننا وبينها وسائط. ويقال لكل من كان أصلاً لوجود شيء أو تربيته أو إصلاحه أو مبدئه (أم). والأب: الوالد، ويسمى كل من كان سببًا في إيجاد شيء أو إصلاحه أو ظهوره (أبًا). ويسمى العم مع الأب أبوين وكذا الأم مع الأب والجد مع الأب، ويسمى معلم الإنسان أباه. ويقال أبَّ إلى الشيء: نزع إليه نزوعًا وتهيأ لقصده(١٥).

والأنساق المجتمعية تبدأ بـ(**الرهط**) وهم أقرب تسعة أشخاص للشخص (**الأسرة**) و(**الفصيلة**) وهما أهل بيت الرجل وخاصته، و(**العشيرة**) وهم الذين يتعاقلون إلى أربعة آباء، و(**الفخذ**) وهو الفرقة التي تتشعب من البطن، و(**البطن**) وهي التي تجمع الأفخاذ، و(**العمارة**) وهي التي تجمع البطون وهي دون القبائل، و(**القبيلة**) وهي تجمع العمائر وهي دون الشعب، (**والشعب**) وهو الذي يجمع القبائل وتتشعب منه، و(**الجمهور**) وهو الاجتماع والكثرة، و(**جزم النسب**) وهو الجد الأعلى وهو بالنسبة للعرب: إما عدنان أو

قحطان، وبالنسبة لكل البشر: آدم وحواء.

ويشبه الصيادي هذه الأنساق بالجسد، الرهط فيه كأصابع القدم، والفصيلة بمنزلة القدم، والعشيرة بمنزلة الساقين، والفخذ سمى بذلك لقرب الفخذ من البطن، والعمارة بمنزلة اليدين، والقبيلة بمنزلة الصدر، و(الشعب) أشبه بالرأس، (والجمهور) اجتماع و(الأصل) جامع، وتعارف الشعوب والقبائل وتعلم ما يتم به صلة الأرحام ومعرفة الفرائض في الإنسان هو أمر الله ومراده(١٦).

الأمة المسلمة

والأمة ناظمة لكل تلك الأنساق فهي كالأصل والمعدن، وما عداها كالجداول المتشعبة منها، والمتأمل في دعوة إبراهيم ـ عليه السلام ـ ﴿أمة مسلمة لك﴾ يلاحظ أن (أمة) نكرة ولا تصير علمًا إلا بالإسلام وهو الانقياد والاستسلام لأمر الله الذي جمع اسمه تعالى الخلق والإيجاد والتكوين والإبداع، فيما يتعلق بمعرفة المبدأ والمصير والغاية والحلال والحرام، و(الجعل) يشمل: الهبة والتعليم والبيان والدلالة، و(لك) تفيد: الحصر أن نكون مسلمين لك لا لغيرك قائمين بجميع شرائع الإسلام موحدين خالصة لك نفوسنا وقصدنا(١٧). والأمة تفرز خبثًا بالضرورة بدليل خروج ظالمين من ذرية إبراهيم.

والأمة المسلمة لله هي دعوة إبراهيم (الذي انفرد في القرآن بالوصف بأنه إمام وأمة) وهي لم تنشأ من فراغ، تؤم (الناس) وليس (المسلمين فحسب) وهم جميع البشر، ولم يزل في ذرية إبراهيم وإسماعيل من يعبد الله وحده، ولم تزل الرسل حتى خاتمهم منها.

وجاء لفظ (أمة) في هذا الموضع في سياق مرتبط بالكعبة، ويجعل البيت مثابة للناس وأمنًا، وبتكليف إبراهيم وإسماعيل بتطهيره للأمة المسلمة وجعله مثابة للناس وأمنًا، فمع أن الله خلق آدم خليفة في الأرض فإن النواة المكانية للأمة المسلمة هي أم القرى، وهي البيت، وهو بيت الله وحرم الله لا بيت أحد من الناس، وإبراهيم وإسماعيل خادمان له بأمر الله يعدّان لعباد الله الصالحين، وأساس الأمة ليس وراثة الأصلاب

والأنساب، بل الصلاح والإيمان وتقوى القلوب، والانتساب إلى (أمة مسلمة لك) والإمامة مرهونة بالبعد عن: ظلم النفس بالشرك، وظلم الناس بالبغي، والتمتع بالثمرات الدنيوية مرتبط بالإنسانية دون النظر إلى أي اعتبار آخر.

ويستشف من دعوة إبراهيم وإسماعيل هذه أن **من سمات الأمة المسلمة: تضامن الأجيال في العقيدة، والحرص على نعمة الإيمان في الذرية**، وفي السياق ذاته تأتي وصية إبراهيم ثم يعقوب لذريتهما بالثبات على الإسلام، ولا يشغل ذهن يعقوب وهو يعالج سكرات الموت إلا موقف بنيه من الإسلام من بعده[١٨]، وإمامة إبراهيم للناس تعني صدارة أمته وعزتها وشمول ولايتها، وربط ذلك بعدم الظلم يعني إمكانية حدوثه، ووصية إبراهيم ويعقوب لبنيه تؤكد أن شأن الأمة المسلمة أمر تكليفي وليس تكوينيًا، فالدين النصيحة، ولا إكراه في الدين، ومن هنا تتأكد الحرية والمسؤولية كسمتين للأمة المسلمة.

ثم إن السياق يشير إلى التوبة والرحمة والاصطفاء في الدنيا والصلاح في الآخرة، وتضعنا الآية (١٣٤) من البقرة أمام حقيقة أن الثابت في مفهوم الأمة هو الدين أما البشر فهم متغير في المفهوم معرض لـ (حضور الموت)، فالآية تشير إلى أن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وبنوهم الموحدون (أمة قد خلت) أي انقرضت وانقضت بحلول أجلها، والقرآن إذ يقص أخبارهم وما كانوا عليه من الإسلام ومن الدعوة إليه، لن تنفع غيرهم سيرتهم ما لم يفعلوا ما فعلوه.

والمسؤولية الذاتية لكل أمة، أي لكل جيل أو قرن مقررة، فالأبناء لا يثابون على إسلام الآباء لله ولا يعاقبون على كفرهم به. ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه، ولا نسب في ميزان الله إلا التقوى، وتؤكد الآية (١٤١) من البقرة قاعدة النهي عن بخس أمة خلت حقها وكتمان كلمة الحق في شأنها، فمحاكمة الماضي وتزييفه غير جائزين، ونواة الإسلام لله هي عدم التفرقة بين رسل الله بالإيمان بهم جميعًا كناظم للعلاقة بين أمم الرسل، فأمة جيل إبراهيم خلت، ولها ما كسبت ومسؤوليتها الذاتية عن عملها ثابتة،

ولن ينفع أحد الانتساب إلى ذرية أولئك الأنبياء، بل الدخول في الإسلام بالإيمان بما يدعو إليه محمد (ص)[19].

ومن الأدلة على أن الجعل في هذا السياق بالنسبة للإمامة من جهة، ولوصف البيت الحرام بالمثابة والأمن للناس أمرًا تكليفيًا أن إبراهيم لم يطلب الإمامة لذريته ولا أن تكون ذريته ﴿أمة مسلمة﴾ بل طلبهما لجزء من ذريته، فدل على أن سابق العناية الإلهية لا يؤثر في حدوث الجناية، وأن ولادة الطالح من الصالح واردة ولا تحط من رتبة ولايته.

وإبراهيم بوصفه فردًا وأمة بذاته، خليفة مكلف من الله بتدبير أمر أهل الأرض والنظر في مصالحهم بالحكم بالعدل وعمارة الله بانقياد تام لله وبوحدة القصد والنية، (وجعل البيت مثابة للناس وأمنًا) إنما هو أمر من الله لكل أمة مسلمة تخلف أمة مسلمة أخرى بتدبير أمر البيت وتحقيق أمنه، وكأن الله يقول: جعلنا البيت مثابة للناس يثوبون إليه من كل جانب ويحجون ثم يتفرقون، ولا يقضى أحد منهم وطرًا، ويعودون إليه أعيانهم أو أمثالهم، فاجعلوه آمنًا لا يعتدى فيه أحد على أحد، وطهّروه بتأسيسه على التقوى والطهارة والتوحيد، وحين لا توجد (أمة مسلمة) يجعل الله أمر أمن البيت أمرًا تكوينيًا كما حدث بالنسبة لأصحاب الفيل، وكما حدث لقريش قبل الإسلام من الإيلاف لا يتعرض أحد منهم ـ رغم جاهليتهم ـ لأحد فيه، ولا يتعرض أحد لأحد منهم حتى إن وجده بمفازة أو برية إذا علم أنه من سكان الحرم[20].

الأمة الوسط الشاهدة

ويشير السياق بعد ذلك إلى (أمة وسط) في الآية (١٤٣) من سورة البقرة، والخطاب في هذه الآية موجه إلى أمة محمد(ص) ويبدأ بكاف التشبيه التي تربط جعلها ﴿أمة وسطًا﴾ بذات السنن الإلهية في الكون الذي هو كله من خلق الله ومقاليده بيده، وكما هدى الله إبراهيم إلى البيت هدى هذه الأمة إليه، كأوسط قبلة وكأول بيت وضع

للناس، وكما كلف أمة إبراهيم بالإسلام له وتدبير أمن البيت وإقامة العدل، كلف أمة محمد(ص) بأن تكون ﴿أمة وسطًا﴾ والوسط هو (العدل) وهو عدم الميل إلى أحد الجانبين، فأول سمة في (أمة وسط) هي أن تكون (ميزانًا) بالبعد عن الطرفين: الإفراط والتفريط، فوسط الشيء أفضله؛ لأنه يحكم على سائر أطرافه على سواء واعتدال ومن موقع التمكن، وهو محمي محوط، والأطراف يتسارع إليها الخلل والفساد.

والوسط يرتبط بنظام يتحوش فيه الأتباع الرئيس ويكون في وسطهم وهم حوله، وهي وضعية لا تتحقق إلا في ظل علاقة ألفة بين الحاكم والمحكوم، ولما كانت الوسطية معللة بأن تكون هذه الأمة شهودًا على الناس فإن العدالة تصير من مقوماتها المطلوبة ومحورها: أداء الواجبات واجتناب المحرمات، فالشهيد كالرقيب والمهيمن على المشهود له، ولا سبيل لذلك بدون استعلاء وعزة[٢١].

وينبهنا الفخر الرازي إلى مقومات (وسطية الأمة)، مشيرًا إلى أن الخطاب في قوله تعالى ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطًا﴾ يبين أنهم وسط إذا اجتمعوا أما إذا اختلفوا فإن هذا الوصف يزول عنهم، ويجعل شرط وسطية الفرد في الأمة: انتماءه إليها كجماعة واحدة، فالخطاب معهم بالجمع يقصر كسب تلك الصفة على حالة الاجتماع، ويضفي تلك الصفة على كل واحد منهم عند اجتماعه مع غيره، وشهادة الأمة وخيريتها لا تعني خيريتها في كل الأمور، ولا عدم إمكانية وقوعها في اللمم، وإنما تحريها العدل وصدق النية وعدم الإصرار على الخطأ[٢٢].

ولنعت الله (أمة وسطًا) بلفظ النكرة دلالته التي تشير إلى تناوله لأهل كل عصر، فأهل العصر الواحد الموحدون (أمة)، ومفهوم (أمة وسط) يشمل: أمم العصور المتعاقبة المسلمة[٢٣]، والتنكير يحمل على التنويع. ويتضمن وصف (الوسط) بهذا المعنى التسليم بأن كل أمة كانت على قبلة وشرعة ارتضاها الله لهم في وقتهم ولم يفرقوا بذلك بين رسل الله، كانوا بالإسلام لله على صراط مستقيم، وهم من لدن آدم حتى قيام الساعة حلقات تتشكل منها (الأمة الوسط)[٢٤].

ومن أهم مضامين شهادة أيّ (أمة مسلمة وسط) على الناس، أن أساس شهادتهم هي إسلامهم لله وإجماعهم لأن شرط الخيرية: الاجتماع لا التفرق في الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والإيمان بالله. والرسل مؤدون للشهادة، ومبينون للحق، وقول الأمة عند الإجماع حجة؛ لأنه يبين للناس الحق...

وشهادة الرسول(ص) والأمة ليست للناس بل على الناس؛ لأن قول الرسول(ص) والأمة المسلمة الوسط يقتضي التكليف بقول أو بفعل أو بالانتهاء عن قول أو فعل وذلك عليهم لا لهم في الحال، وهذه الشهادة جزء من منظومة الشهادة في الإسلام التي تشمل الدنيا والآخرة وتتصدرها شهادة الله للأنبياء على أممهم، وشهادة الملائكة الموكلين بإثبات أعمال العباد، وشهادة الأنبياء وشهادة أمة محمد(ص) على سائر الأمم، وشهادة محمد (ص) على أمته، وشهادة الجوارح.

والشهادة هي الإخبار عن حقوق الناس بألفاظ مخصوصة على جهات مخصوصة، وكل من عرف حال شيء وكشف عنه كان شاهداً عليه، والشهادة إذن ميزان لا تكفي العدالة والخيرية في الممسك به إلا بالتمكن الذي يكفه هو عن التطفيف، حالة أخذ الحق من الغير، وعن الإخسار في الميزان، حالة توصيل الحقوق إلى أصحابها، ويوفر له القوامة التي تجعل قوله حجة، وقولاً فصلاً لا موضع فيه لشبهة ولا اتهام.

والميزان الذي تستند عليه الشهادة في تقدير قيم الأشخاص والأحداث واحد، وضعه الله في الأرض وذكره معرفًا، وهو المنهج الإلهي الواحد الذي جاءت به الرسل جميعًا، والوسطية هي ركيزة استخدامه حيث لا موضع فيه للهوى ولا للطغيان بالإفراط ولا بالتفريط، وحيث يتعين إقامته على النفس قبل إقامته على الغير[٢٥].

ووحدة الميزان هذه صبغة لكل أمة وسط مصبوغة بصبغة الله مفطورة على التوحيد، تتمكن تلك الصبغة من قلوبهم بالتحقيق، وتظهر آثارها على ذواتهم وأفعالهم وأقوالهم بالتوفيق، وأصل الشرائع واحد هو التوحيد، وهو منهج الرسل والمخلصين من أتباعهم في كل عصر الذين آمنوا بما أنزل من قبلهم وبما أنزل من بعدهم، وأمدهم الإسلام لله

بوصلة وزلفى جعلت خاتم الرسل شاهدًا على أمته، وأمته شهيدة على كل الأمم، وصار محمد(ص) وأمته إلى قيام الساعة هم: القطب وما هم عليه من عند الله هو الحجة، ومن أحدث في أمرهم شيئًا فهو عليه رد[٢٦]. ومرة أخرى، فإن هذه الوضعية لأمة محمد(ص) بكل أجيالهم وضعية تكليف ولا وضعية تكوين، وهي مشروطة بشرط الله فيها وبالتوفية بما ابتلاها الله به من كلمات، وهي عرضة للاستبدال فيما لو أخفقت وتفرقت، وتتطلب وضعية (الوسطية) أيضًا ألفة تجمع وتجذب، وعزة من الفتنة في الدين تمنع.

ويبين الجصاص أن شهادة الرسول على أمته حجة كأمر تكويني، أما كون أمته حجة فهو أمر تكليفي، وشهادة الأمة الخيار العدول مأخوذة من إجماعها، فهي كجماعة حجة دون كل واحد منها، وهم يشهدون في الدنيا والآخرة على الناس بأعمالهم التي خالفوا الحق فيها، والعدالة والخيرية هي مناط صدقها وعدم اجتماعها على ضلالة، وكل أمة في عصر تشهد على مَنْ في عصرها بأعمالهم دون من مات قبل زمانهم، وهم في الدنيا شهداء على من شاهدوهم من أهل العصر الثاني بدليل قول عيسى ـ عليه السلام ـ ﴿وكنت عليهم شهيدًا ما دمت فيهم﴾.

أما الشهادة التي هي الحجة فلا تختص شهادة الرسل فيها بزمن، وكذلك أهل كل عصر لما كانوا شهداء لله من طريق الحجة لا من طريق مراقبة العمل صاروا حجة على أهل عصرهم وعلى من بعدهم من سائر الأعصار، وصار إجماع أهل كل الأعصار حجة واحدة، وصار خطاب ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطًا﴾ خطاب تكليف لجميع الأمة أولها وآخرها بكل حلقاتها عبر العصور إلى قيام الساعة، وجعل القبلة (كعبة) والتسوية بين مولي وجهه شطر أي جهة منها شاهد على ذلك[٢٧].

ومن الأهمية بمكان، الإشارة إلى أن مفهوم (أمة وسط) ورد في سياق مرتبط بأمة إجابة(ص)، ومختص بتحويل القبلة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام ومصحوب بالتأكيد المغلظ على اختصاص الأمة الإسلامية بعد رسالة محمد(ص) بالبيت الحرام كقبلة كانت هي الأولى والأخيرة، وعلى ضرورة تميزها بإقامة الدين كله لله، ويتجاوز

مفهوم الأمة بالتوجه إلى القبلة، نية الانتماء، إلى سلوكيات عملية بالغة التكرار كالصلاة والحج والعمرة؛ لتأكيد قصد الانتماء وتجسيد القدوة والوسطية في التصور والاعتقاد والتفكير والشعور والتنظيم مستفيدة في ذلك من مقومات الوسطية التي منحها الله لها، وهي: وحدة إلهها ورسولها ودينها وقبلتها.

وهي أمة في موضع ابتلاء معرضة للتلبيس، والتضليل من داخلها وخارجها، ولا قاطع لحجة الناس عليها إلا حرصها على وحدة القلب والصبر والصلاة وتقبل التضحيات؛ لتكون كلمة الله هي العليا، والإيمان بأن مصيرها محكوم بـ ﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾ فهي لله بكل كيانها وذاتيتها، وإليه مرجعها في كل أمر.

وهذا التسليم المطلق يوحي بالتناظر بين مفهومي (أمة مسلمة لله) و(أمة وسط)، فالخطاب لجميع الأمة من حين نزول هذه الأية إلى قيام الساعة كما في سائر التكاليف، وهو للموجودين بالذات وللباقين بالتبعية، وهي خاصة بأهل كل عصر من الله عليهم بأن جعلهم خيارًا وعدولاً عند الاجتماع. وحال الشخص عند انفراده، ويكون مقبول الشهادة عند الاجتماع، وهذه الشهادة تعني: القوامة ببيان الحق في الدنيا، والشهادة به في الآخرة[٢٨].

وثمة اتفاق بين المفسرين على أن الآية (١٤٣) من سورة البقرة دليل على عصمة الأمة في حالة إجماعها، والإجماع هو العزم على الشيء والإمضاء، وخطاب الشرع يشمل (خطاب التكليف) وهو الكلام المقصود منه إفهام من هو متهيئ للفهم بالوجوب والتحريم والندب والكراهة والإباحة، و(خطاب الإخبار) للمخاطب الموجود وغير الموجود، والعقل يدرك الحكم وليس بحاكم، وهو لا يقال أوجب كذا، بل أدرك كذا.

والإجماع اصطلاحًا هو اتفاق مجتهدي أمة محمد(ص) بعد وفاته في حادثة من الأمور في عصر من الأعصار، ويخرج منه اتفاق العوام، فلا عبرة به، ويخرج منه اتفاق بعض المجتهدين فحسب، واتفاق الأمم السابقة، وأهل الإجماع لا يحكمون بإجماعهم بل بصدور الإجماع عن أصل؛ لأنه لا يجوز القول في دين الله بغير دليل[٢٩].

ومجال الإجماع هو ما لم يرد نص شرعي قاطع الدلالة بشأنه، ولا موضع له فيما عرف من الدين بالضرورة فهو محكوم بالقرآن والسنة الصحيحة، هو بتعبير آخر، اتفاق المجتهدين، وبقية الأمة تبع لهم في الاستجابة له ما لم يعرفوا دليلاً للمخالفة، ويراعي فيه فقه المكان والزمان في الحوادث، ولا يكون الإجماع إلا من أمة محمد(ص) وبعد وفاته.

ورغم كون الأحاديث النبوية الداعية إلى لزوم الجماعة أخبار آحاد لا تفيد اليقين، فإن تواترها عن طريق المعنى هو كالتواتر في اللفظ في إيجاب العلم بحجية إجماعها. والإجماع لا ينسخ ولا ينسخ به: كونه لا ينسخ؛ لأنه لا يكون إلا بعد وفاة الرسول والنسخ لا يكون بعد موته، ولا ينسخ بإجماع آخر لأنه معصوم[٣٠]. أما الاجتهاد في تنزيل الأحكام على الحوادث فتتأسس حجيته على بذل الجهد المستطاع في فقه معطيات الزمان والمكان مع عدم تعمد الخطأ، ولكن ذلك لا يؤسس حجية تأييده لكونه نتاج واقعة قد يصح الاسترشاد بها، ولكنها لا تتكرر بحذافيرها، والإجماع المعتبر هو إجماع الأمة المسلمة الوسط العدول؛ إذ إن إجماع غيرها على الخطأ متابعة لقول واحد منهم وإساءة لتأويل الشريعة أمر وارد[٣١].

من هي الأمة الوسط؟

والسؤال الآن: من هي الأمة المسلمة الوسط؟ سبق القول بأن (أمة) وردت موصوفة بـ (مسلمة) و(وسط) بالتنكير، مشيرة إلى كل أمة مسلمة وكل أمة وسط عبر العصور، ولاحظنا أن السياق يشير ضمنًا إلى عدم التعدد في كل عصر على حدة، ففي كل عصر أمة مسلمة وسط واحدة، إلا أن هذا التحديد يقتضي قدرًا من البيان لتحديد البعدين الزماني والمكاني للمفهوم محل البحث حالة الانتقال به من التنكير إلى التخصيص والتعريف. فلقد رأى البعض أن ﴿أمة مسلمة لك﴾ تحققت في إبراهيم وأهله ومن أسلم معه، وتتابعت أمة مسلمة جيلاً بعد جيل إلى يوم القيامة، ورأى بعض آخر أنها بدأت ببعثة محمد(ص) وأمة كل قرن أو جيل منها إلى يوم القيامة. بل إن البعض أراد قصر

وصف (أمة وسط) على أمة محمد(ص) أو على بعض أمة محمد(ص) [٣٢].

ويقدم السيوطي دراسة مستفيضة لهذه الإشكالية: هل كانت كل الأمم السابقة يوصفون بأنهم مسلمون أم لا؟ وهل يطلق بالإسلام على كل ذي دين حق أو يختص بأتباع محمد (ص)؟ ويشير السيوطي إلى أن رأى ابن الصلاح أن الإسلام يطلق على كل دين ولا يختص بالأمة المحمدية. ويسهب السيوطي في إثبات العكس، وهو أن وصف الإسلام خاص بأمة محمد(ص) ويسوق حججًا من أهمها: أنها أمة مرحومة أعطيت من النوافل مثل ما أعطى الأنبياء وافترض الله عليها من الفرائض مثل ما افترض على الأنبياء والرسل، وأوتيت هذه الأمة المحمدية ثلاث خصال لم يعطها إلا الأنبياء كان النبي(ص) يقال له: بلغ ولا حرج، وأنت شهيد على قومك وادع أجبك، وقيل لهذه الأمة: ﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾، ﴿ولتكونوا شهداء على الناس﴾ ﴿ادعوني أستجب لكم﴾.

وليس من المؤكد أن الذي سماهم (المسلمين) هو إبراهيم، فالضمير في ﴿هو سماكم المسلمين﴾ قد يعود على الله ـ تعالى ـ ؛ لأنه سماهم المسلمين في كل الكتب وفي القرآن، وخصهم بهذا الاسم في أم الكتاب من دون سائر الأمم.

ويرى السيوطي في قوله تعالى: ﴿ورضيت لكم الإسلام دينًا﴾ نصًا ظاهرًا في الاختصاص بهم بدلالة تقديم (لكم). ويذهب إلى أن الإسلام كان من وصف الأنبياء دون أممهم، وأن الله تسمى باسمين هما لأمة محمد(ص): فهو السلام وهم المسلمون، وهو المؤمن وهم المؤمنون. ونفى الله عن إبراهيم كونه يهوديًا أو نصرانيًا بقرينة نزول التوراة والإنجيل من بعده، دليل على أن شريعة التوراة تسمى يهودية وشريعة الإنجيل تسمى نصرانية ولا تسمى واحدة منهما إسلامًا.

ووصف الإسلام قبل أمة محمد(ص) قاصر على الأنبياء، وبيوتهم وأولادهم لا يشاركهم فيه بقية الأمة، أو يحمل على الانقياد والإذعان لله فيما أمرهم به. واستواء الشرائع كلها في أصل التوحيد ليس دليلاً كافيًا؛ لأن الإسلام ليس اسمًا للتوحيد فقط،

بل لمجموع الشريعة بفروعها وأعمالها كما أنزلت على محمد(ص).

والخلاصة أن كل ما أطلق من وصف الإسلام فيمن تقدم فإنما أطلق على نبي أو ولد نبي تبعًا له أو جماعة فيهم نبي غلب لشرفه أو على العازمين على الإسلام إذا بعث محمد (ص) في حياتهم لما يجدون في كتبهم من نعته وصفته والأمر باتباعه. ولم تذعن أمة لنبيها مثلما أذعنت هذه الأمة، وإبراهيم كان على الإسلام، رغم نزول القرآن بعده لأن القرآن أخبر بذلك، وأمر الله للمؤمنين بالدخول في السلم كافة إنما هو أمر في الدخول في كافة شرائع الإسلام وعدم التمسك بشيء من أمر التوراة[٣٣].

وواقع الأمر أن السيوطي إن كان يريد بالإسلام الدين الذي جاء به محمد(ص) الذي تشمل أحكامه كل ما جاء بالقرآن والسنة الصحيحة، أو الإسلام بمعنى الانقياد لله بعد بعثة محمد(ص) إلى قيام الساعة فإن وصف (مسلمة) بهذا التحديد لا ينطبق كما قال إلا على من أجاب من أمة محمد(ص)، أما إن كان يريد وصف (مسلمة) بمعنى منقادة لله بإطلاق فهي تشمل كل أهل دين حق من لدن آدم حتى قيام الساعة.

والتشابه بين خصال أمة محمد(ص) والأنبياء قرينة تواصل زماني بين الأمم بتلك الصفة، وليس قرينة على أن الله ارتضى من أحد في أي زمان ومكان دينًا إلا الإسلام له، وقوله تعالى ﴿وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا﴾ ليس دليلاً على أن صفة (مسلمة) خاصة بأمة محمد(ص) بدعوى أنهم لو كانوا مسلمين لقالوا حين توجيه هذا السؤال إليهم: نحن مسلمون وديننا الإسلام؛ إذ إن السؤال وجه إليهم بعد بعثة محمد(ص)، وصفة الإسلام مشروطة بالإيمان باللاحق حتى الخاتم، وعدم التفرقة بين أحد من رسل الله، وعدم الإيمان ببعض الكتاب والكفر بالبعض الآخر، ومقولة قصر وصف (مسلمة) على الأنبياء وبيوتهم وأولادهم لا أساس له؛ لأن هذه الصفة أمر عقيدة لا علاقة عرق ونسب.

وقلة عدد من آمن بالرسل السابقين لا تنفي عنهم صفة كونهم (أمة مسلمة) إذ لا دخل للعدد في ذلك، وكيف يكون له دخل، وفرد واحد يعد (أمة مسلمة) وحده؟ ورغم

إلحاح السيوطي على إثبات اختصاص أمة محمد(ص) بوصف (أمة مسلمة) فإنه نبه على وجود مخالف له في ذلك، وأورد في ثنايا دفاعه عن رأيه ما ينقضه. وستكشف متابعة بنية مفهوم الأمة في المواضع القرآنية الأخرى أن رأى ابن الصلاح أولى بالصواب.

ووردت (أمة) في الموضع الثاني بصيغة ﴿كان الناس أمة واحدة﴾ في سياق ينعى على المنافقين إظهار ما يخالف حقيقتهم وعدم التطابق بين قولهم وفعلهم، ويثني على من يشرون أنفسهم ابتغاء مرضاة الله، ويدعو إلى الدخول في السلم كافة، ويذكّر بسنة الله في ابتلاء الأمم، وبأن أصل البشرية كلها (أمة واحدة) هي أسرة آدم وحواء وذراريهم، وبأن الناس مفطورون على التنوع والاختلاف في الاستعدادات والتصورات، ومن ثم هم بحاجة إلى رسل وكتب منزلة تفصل في الاختلاف بقول فصل، تدخل الناس في السلم وتحول التنوع من عامل فرقة إلى عامل قوة.

أمة واحدة

وكما أن أصل البشر واحد، فإن ربهم واحد، وإلههم واحد، وما أنزل إليهم من ربهم وجاء به الرسل جميعًا كتاب واحد في أصله، بملة واحدة في عمومها بمشروع واحد لكل بني الإنسان، فكل نبي جاء بالدين الواحد القائم على التوحيد الخالص، وكانت مهمة الرسل والنبيين والصالحين هي إزالة الانحراف عن هذا الأصل، وإحياء العقيدة الأصلية بميزان ثابت من الله يفئ إليه الناس، وهو ميزان غير محكوم بزمان ولا مكان، ومؤسس على علم يقيني لا موضع فيه لمظنون ولا لمجهول، ومستعل على الحاجة وعن الكون بما فيه ومن فيه.

وهذا الميزان ليس لإزالة الاختلاف بل لضبطه وهداية العقل البشري بالشرع في مواجهة الأحوال المتطورة والظروف المتغيرة، والمورد الأساسي للطغيان في هذا الميزان هو: البغي بين الناس، وإقامة هذا الميزان تحتاج إلى الاستعانة بالله وقبول التضحيات

واليقين بأن الابتلاء قاعدة، والأيام دول، والعاقبة لمن يتحلى بالصبر والثبات[٣٤]، فالبغي والتحاسد والتنازع في طلب الدنيا داء للإنسان لا يتعلق بزمان ولا مكان.

و(أمة واحدة) هنا هي آدم وأولاده كانوا ـ بالنقل المتواتر ـ مسلمين مطيعين لله إلى أن قتل قابيل هابيل حسداً وبغيًا، وعلى مدى عشرة قرون كان آدم وذريته كلهم على الدين الحق أمة واحدة، وكان آدم نبيًا مبعوثًا.

ويفيد وصف الله للنبيين في هذا الموضع بـ (مبشرين) ثم (منذرين) أن البشارة تجري مجرى حفظ الصحة وهو مقصود الغذاء، والإنذار يجري مجرى إزالة المرض، وهو مقصود الدواء، والأول مقصود لذاته وهو مقدم على الثاني المطلوب لغيره، والكتاب أنزل مع كافة النبيين بالحق وينعى السياق على من جعلوا الكتاب الذي أنزل لضبط الاختلاف وبيان وجه الصواب سببًا لزيادة الاختلاف بنسيان وحدة الأصل وتحريف الكلم عن مواضعه وتكفير بعضهم بعضًا والإيمان ببعضه دون البعض الآخر[٣٥].

ويرى ابن الجوزي: أن المراد بالناس في قوله تعالى: ﴿كان الناس أمة واحدة﴾ هم جميع بني آدم أو آدم وحده، فالعرب توقع الجمع على الواحد، ومعنى الآية كان آدم ذا دين واحد فاختلف ولده من بعده، أو أن آدم وذريته كانوا على الحق إلى أن قتل قابيل هابيل. والسياق كله يدل على أن كينونة الناس أمة واحدة، أمر تكليفي وليست أمرًا تكوينيًا، فالناس لا يختلفون في أمور تكوينية، ووحدة المقصد كأساس لوحدة الأمة والاختلاف في الدين دليل على أنه قائم على قاعدة ﴿لا إكراه في الدين﴾[٣٦].

وثمة حالات خمس كان الناس فيها أمة واحدة، ثلاثة على الإسلام: حين أخذ الله من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم بالعبودية له وأخذ الميثاق على النبيين (وعلى أممهم بالتبعية) أن يصدق بعضهم بعضًا، وأن ينصر بعضهم بعضًا، وأن ينصر كل نبي من يأتي بعده، ويوصي من آمن به أن ينصره إذا أدرك زمانه، وفي عهد آدم، وحين ركبوا السفينة مع نوح، وكادوا يطبقون على الكفر إلا قليلا في عهد نوح وفي عهد إبراهيم[٣٧].

ويقول **الطبرسي**: إن معنى ﴿كان الناس أمة واحدة﴾ أي ذوي أمة واحدة، أي أهل ملة واحدة وعلى دين واحد. ولم تخل الأرض أبدًا من حجة لله على خلقه، ولكن الحق كان في الواحد أو الجماعة القليلة، **وظل المسلمون دعاة ألفة واجتماع وغيرهم دعاة فرقة واختلاف**، وكلف الله آدم وجعله إمامًا لذريته قبل أن يهبطه إلى الأرض، وكان الناس أمة واحدة على فطرة الله قبل نوح.

والتعبير عما بعث الله به الأنبياء بـ(الكتاب) مفردًا مع إرادة الكتب وقوله أنه (نزل معهم) مع أنه نزل على بعضهم وكان البعض الآخر تبعًا لهم دليل على أن القاعدة هي الحرية وعدم الإكراه في الدين واحترام إنسانية الإنسان أيًا كان دينه والتسوية بين البشر في شأن الدنيا وترك أمر الآخرة لله، والتواصل بين أمة النبيين والرسل بقرينة عدم تنزيل كتب على بعضهم ووجود أنبياء بلا كتب وعدم ذكر بعض من أرسل الله إليهم، والتكليف بالإيمان بهم كلهم من ذكر منهم ومن لم يذكر بظهر الغيب(٣٨).

والاختلاف حدث بعد اتفاق على الحق، فالتوحيد والهدى هو الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وبعث الله الرسل لإصلاح الفطرة فكان هديهم واحدًا وإن اختلفت أساليبه حسب اختلاف المصالح، وكملت حلقات إصلاح الفطرة ببعثة محمد(ص) بالفصل في كل ما اختلف فيه السابقون بالغلو أو التقصير.

وتعدد الرسائل مع وحدة الهدف والقصد، وعلى أن شرعية اعتبار الزمان والمكان لا تتعلق بتحديد الهدف بل بطرائق تحقيقه، على أن يكون ناظم الهدف ووسيلة تحقيقه محكومين بشرع الله(٣٩).

ويرى **الغرناطي** أن معنى الآية أن عماد صلاح البشر هو الدين، وأن (كان الناس أمة واحدة)، بمعنى (إن الناس أمة واحدة) على غرار (وكان الله غفورًا رحيمًا) وأنه لولا مَنّ الله على الناس بالرسل وتفضله ببعث النبيين وإنزال الكتاب معهم لكان الناس أمة واحدة في خلوهم عن الشرائع وجهلهم بالحقائق، ولماكان لاختلافهم ضابط(٤٠).

وتوضح (الزخرف: ٣٣ – ٣٥) أنه لولا (أن يكون الناس أمة واحدة) مجمعة على

الكفر بأن يظن الناس أن إعطاء المتاع الدنيوي دليل محبة فيجتمعون على الكفر لأجل المال لوسّع الله على الكافر بلا حدود في الدنيا لهوان ذلك المتاع وزواله، فالسعة المادية ليست دليل قربى ولا رضا ولا اختيار[٤١]. والثراء والإنجاز الدنيوي المجرد عن الدين الحق لا وزن له، وإذا كان هذا هو الشأن في معاملة الله للكافر، فمعنى ذلك عدم جواز التضييق في الأمور الدنيوية على أحد بسبب دينه، فالتسوية في متاع الدنيا مبنية على إنسانية الإنسان، والحفاظ عليها هو الدليل الملموس على عدم الإكراه في الدين.

وهكذا يتضح أن الدين يجعل الناس أمة واحدة بضبط الاختلاف بينهم وتحريكه في إطار جامع، بينما قد يؤدي الافتتان بالسعة الدنيوية إلى إجماع على الكفر يعمق الاختلاف ويؤسس للفرقة.

الدعوة إلى الجماعة والألفة

ووردت (أمة) في سورة آل عمران ثلاث مرات في سياق واحد[٤٢]، الأولى في خطاب للأمة المحمدية ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾، والثانية بأسلوب تقريري ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾، والثالثة ﴿من أهل الكتاب أمة قائمة﴾.

والملاحظ أن خصال (أمة) في كافة تلك الحالات واحدة، والسياق كله يدعو إلى الجماعة والألفة ونبذ الشقاق، ويحذر من عاقبة الشقاق في الدنيا والآخرة، ويبين أن العبرة ليست بالهداية إلى صراط مستقيم، بل بالثبات عليها بالتشبث بالدين الحق والجماعة، فطريق الحق دقيق والسائر عليه غير مأمون أن يزل عن الجادة، ويد الله مع الجماعة المؤمنة.

وينقسم المفسرون لكلمة (منكم) حول: هل هي للتبيين أم للتبعيض؟ ويقول البعض هي للتبيين؛ لأنه ما من مكلف إلا ويجب عليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إما بيده أو بلسانه أو بقلبه، وهو واجب على الكل وإن كان من أمور الكفاية.

أما من يقولون هي للتبعيض، فيرجعون ذلك إلى عجز البعض عن الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مما يعني ضمنًا قصر هذا التكليف على العلماء العارفين بالخير وبالمنكر، ويرون أن الله أراد من أمة محمد(ص) أن تكون (أمة) وفيها (أمة). والأمر بالمعروف ثلاثة صنوف، أولها يتعلق بحقوق الله تعالى، وهي نوعان: نوع يؤمر به الفرد كفرض عين أو نوع يؤمر به الجمع، وثانيها بحقوق الآدميين العامة والخاصة، وثالثها بالحقوق المشتركة كأمر أرباب البهائم برعايتها.

ولما كان العاقل يقدم مهم أمر نفسه على مهم غيره، فإن ترك المنهى عنه، والنهي عن ارتكاب المنهى عنه واجبان لا يغني أحدهما عن الآخر، وهذه الآية واردة في سياق يوضح موارد للفرقة ويحذر منها ويبين أن قمة المنكر الذي كلف الله تلك الأمة بالانتهاء عنه وبالنهي عنه هي: إلقاء الشبهات في النصوص واستخراج التأويلات الفاسدة والتفرق بالعداوة، وبالأبدان بانفراد كل حبر بإقليم وكل رئيس ببلد، والاختلاف في الدين بحيث يرى كل منهم أن الحق معه وصاحبه على الباطل كما فعل أهل الكتاب.

ولما كان الله قد أمر هذه الأمة بالدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن ضده، وكان ذلك مما لا يتم إلا بالقدرة على تنفيذه، فإنه حذرهم من الفرقة؛ لكي لا يعجزوا عن القيام بهذا التكليف(٤٣). وصمام الأمان الكفيل بالتمكن من الارتقاء إلى مستوى (أمة) قادرة على هذا التكليف هو: الاعتصام بحبل الله، وهو: الإسلام، فبه تصنع الجماعة، وينقلب العداء إلى أخوة إيمانية، ويتوحد القصد فالأخ في اللغة: من كان مقصده مقصد أخيه، و(من) في قوله تعالى ﴿ولتكن منكم أمة﴾ تفيد الحصر بمعنى: ولتكونوا كلكم أمة على غرار (من) في قوله تعالى: ﴿واجتنبوا الرجس من الأوثان﴾، ومعنى ذلك أن كافة أفراد هذه الأمة أمروا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

والخير هو الإسلام، والمعروف هو طاعة الله، والمنكر هو معصيته، وتوجيه الخطاب للأمة كجماعة يبقى ذلك التكليف كفائيًا لا عينيًا، وتشمل هذه الأمة في رأي ابن عباس جميع أمة محمد(ص) ونواتها هم المهاجرون والأنصار عامة أو أهل بدر(٤٤).

وتؤكد خبرة غزوة أحد أن الثابت الوحيد في مفهوم الأمة الداعية إلى الخير والناهية عن المنكر هوالدين، وأن عنصرها البشرى متغير، وأن بقاءها يجب أن يرتبط ببقاء الدين وليس ببقاء شخص أيًا كان حتى لو كان النبي محمدًا(ص) نفسه؛ لأن الدين هو المقصود لذاته، أما البشر بما فيهم الرسول(ص) فليسوا مقصودين لذاتهم، بل لهديهم وقدوتهم الباقية ما بقى دينهم.

وميزان الله أشد صرامة بالنسبة للأمة عنه بالنسبة للأفراد، فَهَمّ الأمة بالتراجع في ساحة الجهاد تحت ذهول إشاعة أن محمدًا(ص) قتل سمى انقلابًا على الأعقاب، رغم سرعة فيئها وتقريرها الفوري مواصلة القيام بما كان عليه محمد(ص)، ونبذ هاجس الجبن والوهن مادام الأمر كله بيد الله، وتأكد في ذلك الموقف أن الأمة عكس الأفراد لا تبتلى وهي على استقامة، ولا ينزل بها بلاء إلا بذنب ولا يرفع إلا بتوبة. وقمة ذنوب الأمة أن لا تكون أمة حية كالجسد الواحد بالاعتصام بحبل الله، ولا حافظ للجامعة ولا سياج لوحدة الأمة إلا الإسلام الخالص.

وللدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مراتب أولاها: دعوة سائر (الأمة) سائر الأمم إلى الخير والى مشاركتها فيما هي عليه من خير، والخير هو: الإسلام الذين هو دين الله على لسان جميع رسله لجميع الأمم، والمنحصر من بعثة محمد(ص) حتى قيام الساعة في أمة جامعة.

واجتماع (الأمة المسلمة) لهذا القصد الشريف يقتضي أن تكون مهذبة لنفسها مربية لها، داعية الأمم الأخرى (وهي بالنسبة لها: أمة الدعوة) إلى مشاركتها قائمة بواجب تبليغ أمر الله، محبة لغيرها ما أحبته لنفسها كأمة مفتوحة، لا شرط لعضويتها إلا الإسلام لله. وهذه الوضعية لا تتم إلا بالتعاون والاجتماع والصبر والمصابرة والمرابطة ونبذ الفرقة والأهواء.

أما المرتبة الثانية فهي دعوة المسلمين بعضهم بعضًا إلى الخير والأمر بالمعروف والتناهي عن المنكر، ويقوم به خواص الأمة القادرون على الاستنباط بفقه الزمان

المكان، والمرتبة الثالثة: التواصي بالحق والتواصي بالصبر بين أفراد الأمة، شكرًا لنعمة الله بالتأليف بين قلوب الأمة، والمؤمن مرآة أخيه، ولا موضع للفصل بين النهي والانتهاء، وتغيير المنكر بالفعل مرتبة فوق التناصح تحتاج إلى قدرة خاصة وهي اختصاص ولي الأمر ويشترط فيها إذنه.

ويحتاج نسق مفهوم (الأمر) إلى وجود نسق سلطة في كل الأنساق المجتمعية، وفرق بين النهي عن المنكر وتغيير المنكر، فالنهي عن الشيء إنما يكون قبل فعله وإلا كان رفعًا للواقع أو تحصيلاً للحاصل. فهو رسالة وقائية، فإذا رأى المرء من يغش مثلاً وجب تغيير ذلك، والقدرة والاستطاعة شرطان له. والتغيير باللسان لا يخص نهي الغاش ووعظه فحسب، بل يدخل فيه رفع أمره إلى ولي الأمر الأقدر على تغيير المنكر، والتغيير بالقلب هو عدم الرضا بفعله مع عدم السلبية في مواجهته، فالسكوت على المنكر لا يسمى تغييرًا له بل تمكينًا له.

ومن اللافت للنظر، أن الشرع جعل الحج فرض عين على المستطيع، ولم يشر في فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على (الأمة) إلى الاستطاعة؛ لأن من واجبها الكد في تحصيل أسباب الاستطاعة التي تتطلبها تلك الفريضة، ولأن المثابرة على القيام بها هي التي تولد الاستطاعة والتمكين.

وليس من المتصور في ضوء تعلق فريضة الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بـ (أمة) أن لا يكون لها نظام تقوم في ظله كل فاعليات الأمة بدور منسق ومترابط كأعضاء الجسد الواحد، وكأنهم شخص واحد، ولا قوام لأمة واحدة تقوم بهذه الفريضة وكأنها شخص واحد إلا بالعلم التام بما تدعو إليه وما تأمر به وما تنهى عنه، وبحال من توجه إليهم الدعوة، وبعصارة التاريخ وسنن الأولين وعبرتهم، وصلاً للخلف بالسلف الصالح، ومعرفة حال أمة الدعوة وما بها من ملل ونحل والعلوم المتداولة فيها، والضلاعة في لغاتها تأمينًا للتعارف المباشر بلا استعانة بمترجم أجنبي حتى وإن كان أمينًا، وتربية الدعاة.

ولما كان القيام بهذه الفريضة يقتضي الأخذ على يد الظالم، فإنه لا عبرة بأمر بمعروف ونهي عن منكر يقوم به أفراد على نحو مبعثر، بل أن يكون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر أمة؛ لأن الأمة لا تغلب ولا تخاف في الله لومة لائم، وتستطيع التصدي لتعليم الجاهل، وكونها أمة يستلزم أن تكون كالجسد له رأس يدبر أمر البدن، ويكفل وحدة القصد في أعمال أعضائه وسيرهم، ويناغم بين كافة أوجه التنوع الفطرية غير الناشئة عن نزعة التفرق والشقاق، ويعمل برأي الأكثرية ما لم يظهر للأقلية برهان[٤٥].

خير أمة وأمة قائمة

وتشير (آل عمران: ١١٠) إلى ﴿خير أمة أخرجت للناس﴾ . ويرى الحسن النيسابوري أن الخطاب في هذه الآية موجه لأصحاب النبي محمد(ص) ولكنه عام في حق كل أمة الإجابة والتي صار لفظ (الأمة) علمًا عليها دون سواها من سائر الناس بعد بعثته، ولا يطلق على غيرها إلا بقيد نحو (أمة الدعوة)، ومن مضامين (أخرجت) أن هذه الأمة ليست صانعة نفسها بل هي مصنوعة لله، ولم يخرجها الله لنفسها بل أخرجها للناس، أي أظهرها وميزها عن غيرها، وجعلها سبب الخير للناس بما أن رسالتها هي: إقامة نموذج الإسلام الخالص والدعوة إلى أعرف المعروفات وهو (الدين الحق) والنهي عن أنكر المنكر وهو (الكفر)، والجهاد؛ لئلا تكون فتنة، ويكون الدين كله لله.

وهذه الأمة مهما استقامت فلن تسلم من أذى غيرها، ومعنى ﴿كنتم خير أمة﴾ أنتم خير أمة[٤٦]. ومرة أخرى، فإن هذا أمر تكليفي للأمة، ولا ثناء عليها إن غيرت وبدلت، فشرط الله فيها المستدعى لخيريتها هو: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله[٤٧]، وبتعبير آخر أن تكون أمة وسطًا مسلمة لله، وأن تتعدى موقع الوجود كـ(أمة كامنة) إلى الشهود كـ(أمة فاعلة).

وتشير (آل عمران: ١١٣) إلى (أمة قائمة) من أهل الكتاب ليست سواء مع بقيتهم،

وأساس عدم التسوية أنها لم تقف بالتسليم لله عند حد الإيمان بموسى أو عيسى، بل لم تفرق بين أحد من رسل الله واستقامت على الدين الحق، وبادرت إلى الإجابة لدعوة محمد(ص) وأخلصت إسلامها لله(٤٨)، وتختص (أمة قائمة) في هذا السياق بمن آمن برسالة محمد(ص) من أهل الكتاب، وتشمل من أعلن إسلامه منهم ومن أخفاه تقية في كل ربوع الأرض كالنجاشي، واستقامتهم على دين الحق الذي لم يبدل أو ينسخ قبل بعثة محمد(ص) واتباعهم له علانية، يجعل ذكر وصفهم بأهل الكتاب مهمًا لبيان سر عدم التسوية، ووصفهم بأهل الكتاب حالة إخفاء إسلامهم تقية وارد، كوصف من كتم إيمانه بأنه (رجل من آل فرعون) باعتبار الظاهر(٤٩).

وهي (أمة قائمة)؛ لأنها دخلت في الإسلام كافة، واستقام قصدها وصارت ضمن (الأمة المسلمة لله)، حجة على من خالفها من أهل الكتاب، و(الأمة القائمة المستقيمة العادلة) تشمل كل من وصف بوصفها ودخل في جملة عباد الله الصالحين(٥٠)، وكما أن في (الأمة المسلمة) أناسًا مردوا على النفاق هم في الظاهر منها ولكنهم في الواقع ليسوا منها ولكنهم قوم يفرقون، فإن في (الأمة المسلمة) أناسًا ليسوا منها في الظاهر وهم في الحقيقة منها يكتمون إيمانهم، ولهم دورهم الحيوي على غرار (مؤمن آل فرعون).

وجاء لفظ (أمة) في (النساء:٤١) شاملاً لكل الأمم، مشيرًا إلى شهادة كل رسول على أمته وشهادة محمد(ص) على أمته بكل أجيالها يوم القيامة، وإلى أن الشهادة لا تقف عند حد الدنيا بل تشمل الآخرة أيضًا. فالرسل شهداء الله في الأرض على أممهم وشهداء الله عليهم يوم القيامة، وتوضح قرائن السياق الذي جاءت فيه (أمة) في هذاالموضع ارتباط مفهوم الأمة بالتوحيد والإحسان للوالدين والأقربين، وبالنعي على من يبخلون، ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون فضل الله عليهم. فالأمة جسد له أنساق، وفريضة إنفاق الخير تبدأ بذوي القربى قرابة خاصة أو عامة، ثم بقية المحتاجين حتى تشمل كل بني الإنسان(٥١).

وتأتي (أمة) في (المائدة ٤٨، ٦٦) مرتين، أولاهما بصيغة ﴿ولو شاء الله لجعلكم أمة

واحدة﴾، مشيرة إلى أن إرادة الله بالبشر أن يعبدوه عن اختبار لا عن تسخير وإجبار. ويدعو السياق الأمم إلى استباق الخيرات فيما بينها بالاستقامة على منهج الله، ذروة تلك الاستقامة هي: الدخول في دين الإسلام، فالقرآن مهيمن على كل الكتب السماوية السابقة ومصدق للصحيح منها وهو أمّ لها، والمنهج الإلهي هو وحده الصالح لاستباق الخيرات؛ لأنه من رب الناس جميعهم، خالق الكون كله بما فيه الإنسان، ولأنه موافق لناموس الكون ولسنن الله في الوجود والفطرة السليمة، ولأنه يحرر الإنسان من العبودية لغير الله[٥٢].

ولكل أمة شرعة ومنهاج من الله، العدول عنه أو التعديل فيه لا يعني إلا الفساد، والإفساد في الأرض، وهكذا يؤكد هذا الموضع على مبدأ عدم الإكراه في الدين وعلى محورية المنهج الإلهي وارتباط إمامة الأمة المسلمة به، وعلى فريضة استباق الخيرات ليس كأفراد بلا ناظم، بل كأمة. أما الثانية فتشير إلى (أمة مقتصدة) لم تسرف على نفسها في شأن عيسى عليه السلام وفي معاداة الإسلام ودخلت فيه على بينة[٥٣]، وشرطت الآية التي ورد بها تعبير (أمة مقتصدة) الإيمان بمحمد(ص) بإقامة التوراة والإنجيل؛ لأن من بين أحكامهما الإيمان به وبما أنزل إلى أهل الكتاب من سائر كتب الله، (وعلى رأسها القرآن) الذي وإن نزل على غيرهم فهو في حكم المنزل عليهم، لكونهم مكلفين بالإيمان به في كتابهم[٥٤].

وترد (أمة) في سورة الأنعام ثلاث مرات خاصة بسلوك الأمة المسلمة تجاه غيرها من البشر والمخلوقات وسنة ابتلاء الله للأمم، وتنبه الآية (١٠٨) من تلك السورة إلى ﴿كذلك زينا لكل أمة عملهم ثم إلى ربهم مرجعهم﴾ مرشدة الأمة المسلمة لله، الوسط، القائمة، المقتصدة، التي حددت معالمها في المواضع السالفة الذكر إلى أن تمشي كـ(أمة) في الأرض هونًا، دافعة الضرر الأكبر بالضرر الأدنى، بأن تضبط سلوكها تجاه غيرها بالتسليم بأن كل أمة عملها مزين لها تحسبه صوابًا وتدافع عنه، ومآل الأمم إلى الله يفصل بينهم، وعليها ألا تدخل فيما لا طائل وراءه مما يدفع أمة الدعوة إلى مزيد من العناد والضلال.

ويصل السياق هنا إلى حد منع سب الذين يدعون من دون الله خشية أن يسبوا الله بغير علم، فكل البشر خلقوا من نفس واحدة، والهداية من الله وما على الأمة المسلمة الا البلاغ[٥٥]. أما الآية (٣٨) من سورة الأنعام فتبين أنه ﴿وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم﴾. فالأمة مخلوق حي يدب في الأرض. وكل دابة في الأرض وكل مخلوق غير الإنسان يخضع لنظام متقن ينبغي على البشر التعلم منه واحترامه في التعامل مع كل تلك المخلوقات، فالله جعل لكل نوع ما به قوامه، وألهمه اتباع نظامه، وجعل له نهاية مؤجلة لا محالة، وتسخير الله لها للإنسان ليس مطلقًا بل مشروطًا بمنهج الله ومتبوعًا بالمسؤولية عما فعل بها وفيها[٥٦].

ووردت (أمة) خمس مرات في سورة الأعراف[٥٧]، تشير أولاها إلى ﴿أن لكل أمة أجل﴾ وهو أجل الحياة المؤقت لها، أو الوقت المؤقت لها قبل أن يحل أجل استحقاق العذاب[٥٨]، فالأمة كالكائن الحي تبعث وتعيش وتموت، وأجل (الأمة الجيل) كما سلف القول هو قرنها، وموت أمة ما هو تفرق شملها وذهاب جامعتها.

ويشير القرآن إلى سنة موت الأمم التي تهجر منهج الله وتوقف بعثها من بعد موتها على العودة إليه، وتشير (البقرة: ٢٤٤) إلى نموذج لذلك ﴿ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم﴾ حيث أفضى الهلع والجبن والخوف من الموت بهم إلى هجر وطنهم، وتفيد (الفاء) في (فقال لهم الله) اتصال الهلاك بالفرار، في حين تفيد (ثم) أن الإحياء استغرق وقتًا، وأن ولادة أمة جديدة تراخت إلى أن تم استشعار الداء، واستبدل الله بمن تولوا وفرّوا نسلاً صدقوا ما عاهدوا الله عليه.

الأمة إذن كائن حي يتغير محتواه البشري بالموت الطبيعي، وفي هذه الحالة لا ينقطع وجوده بالخلافة والتوارث، ويعرف الإبدال والبعث المغاير حالة موته بالعقوبة[٥٩].

وتشير (الأعراف: ٣٨) إلى تخطي مفهوم (الأمة) للزمان والمكان وإلى وحدة الأمة المسلمة، وفرقة الأمم الأخرى؛ لأن الجامع للأمم في الآخر هو: وحدة القصد، ومقصود

الأمة المسلمة لله واحد أبد الدهر، أما الأمم غير المسلمة فمتعددة القصد بما أنها (أمم) وليست أمة، وتدخل كل أمة منهم ينقضي أجلها، في أمم قد خلت من قبلها تماثلت معها في قصدها، ونلاحظ هنا تعبير (أخت الأمة) والتلاعن بين الأمم الأخوات في النار. والكل مؤاخذ بالاتباع أو بالاستتباع، وأساس هذه المسؤولية التضامنية هو رضا كل منها بالأخرى والسير على نهجها(٦٠).

وتشير (الأعراف: ١٥٩) إلى ﴿ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾ مؤكدة مرة أخرى أن لفظ (أمة) قد يطلق على القليل الذي يهدي بالحق وبه يعدل كما أطلق على الواحد، وهي هنا خاصة بمن أسلم من قوم موسى(٦١)، وهي دليل على أن الأرض لم تخل من أمة مسلمة لله أبدًا.

وتأتي (أمة) في الموضع الثالث من الأعراف مشيرة إلى وجوب عدم ترك الدعوة مهما كان اليأس من حال من توجه إليه، فلعل الظن يخلف ويدخل في دين الله، فالنصيحة في الله واجبة على كل حال: معذرة إليه حالة عدم إتيانها ثمرتها، ورجاء إليه أن يأتي بثمارها. فالهدي منه وحده(٦٢). وتشير (أمة) في الموضع الرابع إلى أن منهج الله كناظم يؤدي إلى (أمة واحدة)، والعرق كناظم يؤدي إلى (الفرقة)، وتظل بذرة الإيمان قائمة داخل الأمم التي يفرقها العرق تسعى ـ كما لاحظنا في الموضع السابق ـ إلى إعادة أمة الدعوة إلى طريق تقوى الله(٦٣)، وهو ما يؤكده الموضع الخامس المتحدث عن ﴿وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾ وهي الأمة المسلمة لله عبر الزمان والمكان، وجاءت الإشارة إليها في سياق يؤكد على أخذ الله العهد على بني آدم بتوحيده، وإلى خلق الله للبشر من نفس واحدة، وإلى تفرده ـ سبحانه ـ بالأمر كله، وإقامته الحجة البالغة على عباده(٦٤).

وتتضمن سورة يونس ثلاث إشارات لمفهوم (أمة) (٦٥)، تذكر أولاها بأن البشر في الأصل أمة واحدة، وأن الاختلاف وارد، وأن الابتلاء بالشدة ينعش في الإنسان فطرة التذكر والتضرع إلى الله، والنعمة قد تقوده إلى النسيان والظلم، وأن البشر مبتلون فيما

استخلفهم الله فيه، ثم يشير الموضع الثاني إلى أنه ﴿ولكل أمة أجل فإذا جاء رسولهم قضى بينهم﴾. والرسول يجيء لأمته مرتين: الأولى في الدنيا بعد الإذن له بدعائهم ويحكم عليهم بالطاعة عند اتباعه، وبالمعصية إن تمسكوا بالمنسوخ وتركوا الناسخ، والثانية في الآخرة حين يأتي شاهداً عليهم، ويبين الموضع الثالث أن لكل أمة أجلاً محدداً تأتي فيه وتبقى وتكون حجة أو تمهل حتى يقيم الله عليها الحجة(٦٦).

خصائص مفهوم الأمة

وتتضمن سورة هود أربع إشارات لمفهوم (الأمة) (٦٧)، يرد بأولاها تعبير (أمة معدودة) أي أجل معلوم على سبيل الإمهال إلى مجيء أمة وانقراض أخرى، ويشير الثاني والثالث إلى أن إرادة الله أن يتأسس الدين على عدم الإكراه، ولولا ذلك لكان الناس بالتسيير الإلهي أمة واحدة مسلمة لله، ويشير الثالث إلى أن الحرية الدينية هي: سنة الله في خلقه، فعلى عهد آدم كان الناس أمة واحدة مسلمة لله، وتولد الاختلاف والكفر، فصلاح الآباء لا يورث، وعلى عهد نوح فصل الله بين الحق والباطل ولم يُبق الله على الأرض إلا موحداً، وأفرز الطابع الإنساني وعدم الإكراه ـ كركيزة للدين ـ أممًا صالحة، وأممًا طالحة، ومرة أخرى، بين الحق ضرورة ربط التمتع بالدنيا بإنسانية الإنسان وليس بدين الإنسان(٦٨).

وتتضمن سورة النحل سبع إشارات لكلمة(٦٩)، تؤكد أولاها وحدة جوهر رسالة كل الرسل في كل الأمم وهي ﴿أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾ وتشير نتيجة الدعوة إلى أن القاعدة الثابتة هي أن أمر الدين أمر تكليفي قائم على الحرية ومؤسس بالتالي لمسؤولية الأمم، وتلح الإشارات الخمس التالية على تلك القاعدة وتشير إلى مجيء كل رسول شاهدًا على أمته في الدنيا ثم في الآخرة، وتنبه أمة محمد(ص) إلى أن الشيطان زين لأمم سابقة أعمالهم، وتحذرها من أن تكون كالتي نقضت غزلها بأن لا تحترم مواثيقها وعهودها، وتنظم علاقاتها بأمم الدعوة على أساس الانحياز لـ(الأمة الأربى)

أي للأمم الأقوى والأشد بأسًا والتحول عن الأمم المستضعفة منهم.

فإقامة الأمة المسلمة للعدل باحترام العهود ونصرة المستضعف والأخذ على يد الظالم هو: غزل هذه الأمة، والتحول عنه نقض له وركون إلى الذين ظلموا، فالميزان في التعامل هو العدل والإحسان وإيتاء ذي القربى واجتناب الفحشاء والمنكر والبغي والوفاء بعهد الله.

وأخيرًا تصف الإشارة الأخيرة ﴿إبراهيم﴾ بأنه كان ﴿أمة قانتًا لله﴾ فهو قدوة يحتذى، ويعدل أمة بكاملها بالتوحيد الخالص(٧٠).

وجدير بالملاحظة أن التحليل السياقي السالف أوضح بالدلالات الضمنية أن الأمة المسلمة لله واحدة، وليس عفوًا أن يأتي النص الصريح على ذلك في سورتي (الأنبياء:٩٢) و(المؤمنون: ٥٢) الأولى ﴿إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون﴾ والثانية ﴿إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون﴾. وفي حين لم تتكرر الإشارة إلى (أمة) في سورة الأنبياء، فإنها تكررت في (المؤمنون: ٤٣، ٤٤) مشيرة إلى أن لكل أمة أجل، وإلى عاقبة تكذيب الأمم للرسل، فالبشر في مفهوم الأمة متغير لا يعرف الخلود بطبعه حينًا، وبفعله حينًا آخر.

والأنبياء معصومون، وبالتالي فإن أمتهم أمة واحدة لربها عابدة، وعماد أمة المؤمنين الواحدة هو: تقوى الله فهي مبتلاة للصبر وللشكر وللأجر وللتوجيه وللتأديب وللتمحيص وللتقويم، و(أمة الرسل) واحدة كأمر تكويني، و(أمة المؤمنين) واحدة كأمر تكليفي. والأمة هنا فيما يقوله ابن الجوزي: هي الدين، وهي (أمة الأنبياء) التي لا تفرق بين أحد من رسل الله، وهي وحدها الجامعة، وما عداها فمفرّق وداعية اختلاف(٧١).

وفي مقابل الأمة المسلمة الواحدة، تشير (النمل: ٨٣) إلى أن الإرادة والاختيار الممنوحين للأمم المكذبة محدود بالدنيا، أما في الآخرة فإنهم يوزعون: يساقون أولهم على آخرهم حيث لا إرادة لهم ولا وجهة ولا اختيار، ويواجهون بالتهكم والتخجيل مع عجزهم حتى عن النطق(٧٢)، وتؤكد (القصص: ٧٥) على ذات المعنى، في حين تشير الآية

الثالثة والعشرون منها إلى الطابع العابر لأية أمة لا يكون ناظمها وقصدها هو الإسلام لله، وإلى وقوعها في آفة تمكن الأقوياء من الاستحواذ واقتصار المستضعفين على أخذ ما يفيض منهم كصنيع (أمة ماء مدين) [٧٣].

ووردت (أمة) في (فاطر: ٢٤) و(غافر:٥) مؤكدة على أن البشارة والإنذار هي مهمة الرسل، ولا يؤخذ أحد بجريرة أحد، وتكذيب الرسل ليس ناتجًا عن تقصيرهم ولا عن نقص الدليل، بل عن طبيعة العناد والمكابرة، وأن من سنة الأولين أن الرسول(ص) يجيء فيكذبه طغاة قومه ولا يقارعون الحجة بالحجة بل يلجأون إلى منطق الطغيان والبطش والتمويه على العامة بالباطل؛ ليدحضوا به الحق في مواجهة أبدية يداول الله فيها الأيام بين الناس، وينتصر فيها الحق على الباطل وفق سنن إلهية لا تتبدل، لا موضع فيها للعجلة ولا لعدم خوض غمار صنوف الابتلاء[٧٤].

وتشير الآية الثانية من سورة الشورى إلى ضرورة عدم الإكراه في الدين، فالله لو شاء لخلق البشر على شاكلة أخرى توحد سلوكهم ومصيرهم، وتحذر (الزخرف: ٢٢، ٢٣) من آفة التقليد ومن الافتتان بقدرة الأمم الكافرة على حيازة الثراء المادي المجرد عن الإيمان، وينتهي ورود لفظ (أمة) مفردًا في القرآن في موضع له دلالته حيث الموضع في سورة (الجاثية:٢) والحديث عن وضعية يوم القيامة، كما يأتي البشر فرادى كما خلقهم الله أول مرة، تأتي الأمم فرادى لا ناصر لهم من بينهم ﴿كل أمة جاثية﴾ خاضعة، و(لكل أمة كتاب) تدعى إليه مستنسخ فيه كل عملها[٧٥].

الخاتمة

يتضح من هذا الطرح أن الشقة جد واسعة بين مضامين مفهوم الأمة في لغة الضاد، وفي السياق القرآني وبين ما آل إليه ذلك المفهوم في عقول فريق من المفكرين المسلمين، استحضارًا وتأثرًا بمضامين مفهوم القومية الغربية العلمانية كما ترسخت في أوروبا خلال القرون الثلاثة الماضية، وفي العالم الإسلامي منذ سقوط الخلافة العثمانية. ورغم ما ترتب

في أرض الواقع على ذلك من تهميش وفرقة وتفتت في العالم الإسلامي، ومن تراجع أوروبي عن القومية (ولكن مع التمسك بالعلمانية المادية)، فإن عملة القومية العلمانية لا تزال رائجة في العالم الإسلامي دون أية بوادر لإعادة النظر فيها في المستقبل المنظور.

ولعل أهم نتيجة توصلت إليها هذه الدراسة أن اعتبار القومية ـ مرادفًا لمفهوم الأمة ـ فكرة مستوردة منقطعة الصلة تمامًا بالدلالات اللغوية لمفهوم الأمة في اللغة التي أنزل الله بها القرآن، وبدلالات ذلك المفهوم ومضامينه في القرآن الكريم، ولا شك أن هذه الدراسة تحتاج لمزيد من التوسع والتعمق في تأصيل تلك الدلالات في السنة النبوية الصحيحة وفي السياق القرآني كله وفي عصارة سيرته التاريخية. وقد يكون لذلك ما يبرره، ولإن كانت محصلة المواجهة بين المنظورين التغريبي والإسلامي في ساحة مفهوم الأمة في القرن المنصرم هي أسره وتمييعه، فإن **مفتاح الخروج من الوهدة التي تردى فيها العالم الإسلامي هو: استعادة مفهوم الأمة وإعادة بنائه من مصادره الأصيلة.**

ويحتاج ذلك إلى تأصيل الحاجة إلى العودة إلى إحلال الشريعة محل القانون بدلالته الغربية بتفكيك المقولات التي تم من خلالها تخليق فيروس الهزال القانوني للشريعة الإسلامية، وإبراز الطابع التفريقي والإكراهي لأي ناظم للجماعة باستثناء الدين الإسلامي، فلا سبيل لأمة واحدة وإرادة واحدة في العالم الإسلامي إلا به، فالأمة والدين مترادفان، ويتسع مفهوم الأمة بدلالته الإسلامية ليشمل تحت مظلته كافة الأنساق المجتمعية بما فيها القومية وهو كالجسد الواحد، لا يستطيع أن يكون كذلك إلا بأعضاء متنوعة متكاملة في وظائفها خالية من التطرف والانعزالية، بما أن الأمة من صنع الدين ونسيجها هو الوسطية الجامعة والدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وواقع الأمر، أن الهوية الإسلامية المشتركة لم تتمكن على مدى ثلاثة عشر قرنًا حتى سقوط الدولة العثمانية من تحقيق التعايش والتجاور الآمن بين أقوام ولغات منوعة فحسب، بل أبدعت في التوظيف الإيجابي لذلك التنوع، وأسهمت الحركة

الإسلامية المعادية للاستعمار بكثافة في الحركة القومية إدراكًا منها أن القومية بذاتها نسق من أنساق الأمة ما لم ترفع راية العلمانية.

وعلاوة على ذلك، فإن تجزئة الأمة إلى دول قومية لم تستطع زحزحة الإسلام كأحد أهم مقومات النسق العقيدي لمجتمعات البلدان الإسلامية المستقلة. ومع ذلك فإن مفهوم الأمة تعرض لتشويهات جسيمة بحصره بأمور كاللغة والانتماء العرقي والذاكرة التاريخية المتجسدة في دول ذات سيادة والزعم بإمكانية، بل وجوب الفصل بينه وبين مفهوم الدين، وعلمنة مفهوم القومية وتشويش مفهوم الدين بالسعي إلى اختزاله من مفهوم شامل لنظام جامع للحياة مصدره هو الله بطريق الوحي إلى نبي يوحى إليه بكتاب موحى به، إلى مجرد علاقة روحية تتعلق بضمير الإنسان لا علاقة له بما يسمى بالأمور الدنيوية، وتجذر حالة تبعية العالم الإسلامي المادية والمعنوية للغرب.

الهوامش:

١ ـ نديم مرعشلي، أسامة مرعشلي، *الصحاح في اللغة والعلوم*، بيروت، دار الحضارة العربية، ١٩٧٥ ص ٣٧-٣٨، الشريف علي بن محمد الجرجاني، *كتاب التعريفات*، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٣، ص ٣٥.

٢ ـ أبو الفضل بن منظور، *لسان العرب*، بيروت، دار صادر، د.ت، ج ١٢، ص ٢٢ - ٢٤.

٣ ـ ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن الأزدي، *جمهرة اللغة*، بيروت، دار صادر، د.ت، ج١، ص ٢١.

٤ ـ ابن منظور، مرجع سابق، ج ١٢، ص ٢٥ - ٢٦.

٥ ـ المرجع السابق، ص ٢٦ ومن اللافت للنظر هنا قول الأخفش عن مفهوم (الأمة): هو في اللفظ واحد، وفي المعنى جمع. انظر: محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي، *مختار الصحاح*، القاهرة، عيسى الحلبي وشركاه، ج.ت، ص ٢٨ - ٢٩.

٦ ـ ابن منظور، مرجع سابق، ج ١٢، ص ٢٧ - ٢٨.

٧ ـ إبراهيم اليازجي، *كتاب نجعة الرائد وشرعة الوارد في المترادف والمتواتر*، بيروت، مكتبة لبنان، ١٩٧٠، ج ٢، ص ١٦٥ - ١٦٦.

٨ ـ أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي، *المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي*، بيروت، المكتبة العلمية، د.ت، ص ٥٠٤ - ٥٠٥.

٩ ـ *الموسوعة الفقهية*، الكويت، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ١٩٨٦، الصفحات ٢٠١، ٢٠١٦، ٢٥٧، ٢٦٤، ٢٧٠.

١٠ ـ أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، *الكليات، معجم المصطلحات والفروق اللغوية*، تحقيق: د. عدنان درويش، محمد الحصري، دمشق، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٨١، القسم الأول، ص ٢٩١ – ٢٩٢.

١١ ـ أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا، *معجم مقاييس اللغة*، القاهرة، دار الفكر، ١٩٧٩، ص ٢٩ – ٢٩.

١٢ ـ ولا يتسع المقام للحصر في تحليل الحقول الدلالية اللغوية للعائلة المفاهيمية لمفهوم الأمة كما حددها ابن فارس، ويكفي لإبراز التقارب بين فروعها الإشارة إلى تضمن مفهوم (الأصل): تقصي الجذور والشرف والأساس، ويقابله الفرعي والمقلد، انظر: إبراهيم مدكور (وآخرون) *المعجم الوسيط*، القاهرة، شركة الأعلانات الشرقية، ١٩٧٢، ج ١، ص ٣٠.

ومن معاني (المرجع): محل الرجوع، والأصل، والمشاورة وإعادة النظر، والرجوع. انظر: المرجع السابق، ج١، ص ٣٤٣ والعودة. ومن معاني مادة (جمع): ضم المتفرق والعزم على الأمر والحشد والزواج وشهود الجمعة والإجماع والجامع والأمر الجامع والطائفة من الناس يجمعها أمر واحد، ويوم جمع (يوم عرفة) وأيام جمع (أيام منى) ويوم الجمع: يوم القيامة، والألفة. ورجل جميع: مجتمع الخلق قوى قد بلغ أشده، وهو جميع الرأي سديده. والجمع: الملتقى انظر: المرجع السابق، ج ١ ، ص ١٤٠.

ومن معاني (الدين): الإسلام والملة وكل ما يعبد الله به، والاعتقاد بالجنان والإقرار باللسان وعمل الجوارح بالأركان، والسيرة والعادة والحال والشأن والورع والحساب والملك والسلطان والحكم والقضاء والتدبير والعبادة والطاعة. وتشمل مادة (القامة): الاعتدال والإقامة والاستقامة والتقويم، والقوام (عماد الشيء ونظامه وما يقوم به)....

١٣ ـ تكفي الإشارة هنا إلى أن التحليل السياقي لعائلة مفهوم الأمة كما تحددت في معاجم اللغة العربية سيعني ببساطة تحليلاً سياقيًا يشمل: ١١٥ موضعًا بالنسبة لمادة (أمم) و١٢٩ موضعًا لمادة (جمع) و١٠١ موضعًا لمادة (دين) وستة مواضع لمادة (قصد) و١٠٣ موضعًا لمادة (رجع) وعشرة مواضع لمادة (أصل) و٣٤ موضعًا لمادة (حين) و٦١٤ موضعًا لمادة (قوم). ولا يدخل في ذلك بالطبع التحليل السياقي للشجرة المفاهيمية لمرادفات فرعيات أبواب مفهوم الأمة وأصوله. فالقرآن في الواقع جملة واحدة. والمسح الشامل في التحليل السياقي لأي مفهوم يعني تحليله في السياق القرآني كله.

١٤ ـ محمد متولي الشعراوي، *خواطر حول القرآن الكريم*، القاهرة، أخبار اليوم، ١٩٩١، ص ٦٠.

١٥ ـ أبو القاسم الحسين بن محمد (المعروف بالراغب الأصفهاني)، *المفردات في غريب القرآن*، ضبط: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة للطباعة، بيروت، د.ت، ص ٧ – ٨ ص ٢٢ – ٢٣.

١٦ ـ انظر: السيد محمد أبو الهدى الصيادي، *الروض البسام في أشهر البطون القرشية بالشام*، الإسكندرية، مطبعة الأهرام، ١٨٩٢، ص ٣ - ٦.

١٧ ـ فخر الدين الرازي، *مفاتيح الغيب*، القاهرة، دار الغد العربي، ١٩٩١ ج١، ص ٣٥٠، ص ٤١٩ – ٤٢٠، ويتحدث ابن القيم عن ثلاثة أنواع للتوحيد اتفقت عليها كل الرسالات السماوية: (التوحيد القلبي) بإثبات صفات الكمال ونفي التشبيه والتنزيه وبأن الخلق والأمر لله، (وتوحيد الربوبية) بالإيمان بأنه رب كل شيء و(توحيد الألوهية) وبه يفترق الناس إلى مشرك وموحد. ومراتب البشر في الهداية الخاصة والعامة متعددة. والإسلام هو توحيد الله وهو دين أنبياء الله ورسله وأتباعهم من أولهم إلى آخرهم، ولم يكن قط ولا يكون له دين سواه وهو دين أهل السماوات ودين أهل التوحيد من أهل الأرض ولا يقبل الله من أحد دينًا سواه. والعبادة هي الإخلاص ومتابعة الرسل والإقرار بتفرد الله بالنفع والضرر والناس فيها أقسام: أهل العبادة والاستعانة بالله عليها، والمعرضون عن عبادته والاستعانة به، ومن له عبادة بلا استعانة. والشر المستعاذ به نوعان: موجود يطلب رفعه ومعدوم يطلب بقاؤه على العدم، والخير نوعان: موجود يطلب دوامه، ومعدوم يطلب وجوده وحصوله.

انظر: *التفسير القيم*، جمع محمد إويس الندوي، بيروت، دار العلوم الحديثة، د. ت ص ٣٤ – ٤٥، ص ٧٣، ص٢٠٠ – ٢٠٢ ، ص ٥٤٨.

١٨ ـ سيد قطب، في *ظلال القرآن*، القاهرة، دار الشروق، ١٩٨٧، ج ١، ص ١١٠ - ١١٨.

١٩ ـ فخر الدين الرازي، مرجع سابق، ص ٤٤٤ – ٤٤٦ وبين الشعراوي والطبرسي أن (خلت) بمعنى انفردت، فكل حدث يحتاج إلى زمان وإلى مكان ﴿تلك أمة قد خلت﴾ أي انقضى زمانها وانفرد عن زمانكم وانقضى مكانها وانفرد عن مكانكم، والنسب بينكم وبينهم نسب منهج واتباع وليس نسب جنس، وسند الإلحاق بهم أن تكونوا مثلهم أمة مميزة بوحدة عقيدتها وإيمانها انظر: محمد متولى الشعراوي، مرجع سابق، ص ٦١٨ – ٦١٩، أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي، *مجمع البيان في تفسير القرآن*، بيروت، دار المعرفة ١٩٨٦، ص ٤٠٠ - ٤٠١.

٢٠ ـ ويختم أبو حيان هذا التأويل بالإشارة إلى ما يصدقه من الواقع من دخول الجبابرة من أمثال الحجاج بن يوسف والقرامطة الحرم والاعتداء على الحرمات فيه. ولولا أن الحرمة أمر تكليفي ما تمكن أحد من أن يريد فيه بإلحاد بظلم على مدى التاريخ. انظر: أبو حيان الأندلسي الغرناطي، *تفسير البحر المحيط*، وبهامشة *تفسير النهر الماد من البحر*، لابن حيان، *والدر اللقيط من البحر المحيط*، للإمام تاج الدين الحنفي، دارالفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، ط ١٩٨٣، ص ١٤٠، ص ٣٧٩ - ٣٨٣.

ويشير الألوسي أيضًا إلى أن الجعل هنا هو: التصيير لا الإيجاد: انظر: شهاب الدين الألوسي، *روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني*، القاهرة، مكتبة التراث، د. ت، ج ١، ص ٣٨٥، ويرى ابن عاشور أن جعل

البيت آمنًا (أمر تكويني) حينما لا يكون للناس وازرع عن الظلم، (وأمر تكليفي) لدى وجود أمة مسلمة قائمة في الأرض بأمر الله، لله. انظر: محمد الطاهر بن عاشور، *تفسير التحرير والتنوير*، تونس، الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤، الكتاب الأول، ص ٧٠٨ – ٧١٠.

٢١ ـ أبو القاسم جار الله محمود بن عمر المزمخشري ، *الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل ووجوه التأويل*، بيروت، دار المعرفة، د.ت، ج ١، ص ٩٤ – ٩٦. ومن خصائص عبارة ﴿جعلناكم أمة وسطًا﴾ أن وسطا صفة بالاسم الذي هو وسط الشيء ويستوي فيه الواحد والجمع والمذكر المؤنث. انظر: المرجع السابق، ص ٩٦.

٢٢ ـ الفخر الرازي، مرجع سابق، ص ٤٧٠ – ٤٧٥.

٢٣ ـ يشير الطبرسي إلى دخول (بين) على (أحد) في الآية (١٣٦) من البقرة الواردة بهذا السياق للدلالة على أن (أحد) المشيرة هنا إلى أي رسول من رسول الله في معنى الجماعة، ومن يجحد ذلك في شقاق، وهو متفرق. فالرسل جميعًا في مقام الأمة الواحدة، والدين صبغة لأنه هيئة تظهر بالمشاهدة. أنظر: أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي، *مجمع البيان*، مرجع سابق، ص ٤٠٧ – ٤١١

٢٤ ـ انظر: أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي، *جوامع الجامع في تفسير القرآن المجيد*، بيروت، دار الأضواء، ١٩٨٥، ص ١٠١.

٢٥ ـ انظر: أبو الفداء إسماعيل ابن كثير، *تفسير ابن كثير*، القاهرة، المطبعة الفنية، د.ت، ج ٤، ص ٣١٦، وانظر: الفخر الرازي، مرجع سابق، ص ٤٧٦ – ٤٧٩، ص ٣٤٤٩ – ٣٤٥٠، ص ٣٤٩٤، نظام الدين الحسن من محمد بن الحسين القمي النيسابوري، *غرائب القرآن ورغائب القرآن على مصحف التهجد*، القاهرة، دار الصفوة للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٥، المجلد الأول، ص ٣٦٧ – ٣٦٨ والمتأمل في مادة (وزن) في السياق القرآني يلحظ أنها وردت في (الإسراء: ٣٥) و(الأنعام: ١٥٢) ضمن الوصايا العشر، وفي (الشعراء: ١٨٢) و(الأعراف: ٨٥) و(هود: ٨٤ – ٨٥) في ذكر مضامين دعوة شعيب إلى قومه للاستقامة وعدم ابتغاء العوج، وفي (الأعراف: ٧ – ٩) في سياق يدل على عموم المسائلة للرسل ولمن أرسلوا إليهم، وفي (المؤمنون: ١٠٢ – ١٠٣) و(القاعرة: ٦،٨) في سياق ربط مصير الإنسان بثقل وخفة ميزان أعماله حينما يقام الـومن بـالحق يـوم (القيامة) وعلاقة إبليس بآدم وذريته. وفي (الرحمن ٧، ١٠) في سياق خاص بخلق الله كل شيء بقدر، ووضعه الأرض للأنام وأمره للبشر بعدم الطغيان في الميزان بالتعامل مع كل ما في الوجود وفق نظامه وقدره في ميزان خالقه، وفي (الكهف: ١٠٥) في سياق يحذر من توهم الصواب والإجادة على عكس الحقيقة بسبب زيف الميزان المستخدم، وفي (الحديد: ٢٥) في سياق يزاوج بين البيان والكتاب والحديد والميزان، مشيرًا إلى وحدة الرسالات وكونها هي الميزان العدل الذي تشهد به العقول الصحيحة المستقيمة ليتبع الناس الرسل، وأنزلنا الحديد فيه روع لمن يأبى الحق ويعاند بعد إقامة الحجة عليه باتخاذه سلاحًا، وفيه منافع للناس بما يتخذونه منه من آلات

لا قوام لهم إلا بها، والأمر منوط في النهاية بالنية والإخلاص لله وذم الابتداع في الدين؛ لأنه باب فرقة وتشديد على النفس وبعد عن الوسطية. انظر: محمد عبدالباقي، مرجع سابق، ص ٧٥٠.

٢٦ ـ الإمام القشيري، *لطائف الإشارات*، تحقيق د. إبراهيم بسيوني، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب ١٩٨١، ١٥ ص ١٢٥ – ١٣٣ ومن اللافت للنظر أن الآية ١٣٨ من سورة النساء والآية الثانية من سورة الطلاق أمرتا المؤمنين أن يكونوا (شهداء لله) والآية الثامنة من المائدة أمرتهم (أن يكونوا قوامين لله شهداء بالقسط) وفيما عدا حالة الملاعنة بين الزوج وزوجته لا نجد شهادة أحد لنفسه ولا لغيره عدا الرسل، بل شهادة الجميع على أنفسهم وعلى غيرهم. انظر: محمد عبدالباقي، مرجع سابق، ص ٣٨٩ – ٣٩٠) وقول الرسول في حجة الوداع : (اللهم هل بلغت، اللهم فاشهد) دليل على أنه شاهد على الأمة والعكس غير صحيح.

٢٧ ـ أبو بكر أحمد بن علي الرازي الجصاص، *أحكام القرآن*، بيروت، دار الكتاب العربي، ج ١، ١٩٨٦ ص ٨٨ – ٩١.

٢٨ ـ سيد قطب، مرجع سابق، ص ١٢٨ – ١٤٥ وانظر: نظام الدين الحسن القمي النيسابوري، مرجع سابق، ص ٣٦٨ – ٣٦٩.

٢٩ ـ الإمام الزركشي، بدر الدين محمد بن بهادر بن عبدالله، *البحر المحيط*، تحقيق لجنة من علماء الأزهر، القاهرة، دار الكتب، ١٩٩٤، ج ١، ص ١٦٨ – ١٦٩، ص ١٩٣، ج ٦، ص ٣٨٠، ص ٣٩٤ – ٣٩٧.

٣٠ ـ أبو بكر الجصاص، *الإجماع*، تحقيق ودراسة: زهير شقيق كبي، بيروت، دار المنتخب العربي، ١٩٩٣، ج ١، ص ١١ – ١٧، ص ٥٥ – ٦٦، ج ٥ ص ٢٤٨ – ٢٥١

٣١ ـ محمد الطاهر بن عاشور: مرجع سابق، ج ٢، ص ١٩ – ٢١.

٣٢ ـ انظر: شهاب الدين الألوسي، مرجع سابق، ج ١، ص ٣٨٥، ج ٢ ص ٤ – ٥ ، سيد قطب مرجع سابق، ج ١ ص ٣٤٩، وقال ابن جماعة: هم المسلمون من ذرية إسماعيل. انظر: بدر الدين محمد بن إبراهيم بن سعد الله، ابن جماعة، *غرر التبيان في من لم يسم في القرآن*، دراسة وتحقيق د. عبدالجواد خلف، دمشق، دار قتيبة، ١٩٩٠، ص ٢١٢ وقال الطباطبائي: هم أمة محمد، وهم بنو هاشم خاصة. وأمة محمد في دعوة إبراهيم هم: النبي وعترته الطاهرة. انظر: السيد محمد حسين الطباطبائي، *الميزان في تفسير القرآن*، بيروت، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٩٨٣، ج ١ ، ص ٢٨٣ – ٢٩٧.

٣٣ ـ هذا الكتاب يقع في زهاء خمسين صفحة. انظر: الإمام جلال الدين السيوطي، *إتمام النعمة في اختصاص الإسلام بهذه الأمة*، تحقيق د. أحمد عبدالرحيم السايح، د. السيد الحميلي، القاهرة: دار الشرق العربي، ١٩٨٩، ص ٢٦ – ٤٨.

٣٤ ـ سيد قطب، مرجع سابق، ج ١، ص ٢١٥ – ٢١٩.

٣٥ ـ نظام الدين الحسن النيسابوري، مرجع سابق، ص ٥١٦ – ٥١٨، وانظر: محمد بن يوسف أطفيش، *تيسير التفسير للقرآن الكريم*، سلطنة عمان، وزارة التراث القومي والثقافة، ١٩٨٦، ج ١، ص ٣١٩ - ٣٢٠.

٣٦ ـ يوضح الإمام محمد عبده سمو قيمة الحرية الدينية في المنظور الإسلامي بالإشارة إلى أن القرآن أطلق على من يتمتع بهذه الحرية لفظ (ملك) ، وذلك في معرض ملاحظته الدقيقة لقول الله تعالى لبني إسرائيل حين تحرروا من استعباد فرعون ﴿وجعلكم ملوكًا﴾ ولو كان يريد أنه وهبهم ملوكًا لقال (وجعل فيكم ملوكًا) انظر: محمد رشيد رضا، *تفسير القرآن الكريم* ، الشهير *بتفسير المنار*، بيروت، دار المعرفة، د.ت، ج ٦، ص٣٢٣.

٣٧ ـ جمال الدين عبدالله بن علي بن محمد الجوزي، *زاد المسير في علم التفسير*، بيروت، المكتب الإسلامي، ١٩٨٤، ص ٢٢٩ – ٢٣٢، أبو حيان الأندلسي الغرناطي، مرجع سابق ، ج ٢، ص ٥٠٨ – ٥٠٩.

٣٨ ـ أبو علي الطبرسي، *مجمع البيان*، مرجع سابق ج ١ ، ص ٥٤٣ – ٥٤٤.

٣٩ ـ محمد الطاهر بن عاشور، مرجع سابق، ح ٢، ص ٣٠١ – ٣٠٤.

٤٠ ـ أبومحمد عبدالحق بن عطية الغرناطي، *المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز*، تحقيق: أحمد صادق الملاح، القاهرة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ١٩٧٤، ج ٢، ص ٣٥ - ٣٨.

ومعنى ذلك أن الشرع هو الذي حال دون إجماع الناس على الضلال، ولا يزال هو المنقذ من ذلك. وإرادة الله في البشر دائمًا أن يكونوا أمة واحدة مكلفين بالتجمع على الحق، وعدم التفرق بالباطل، بما أن أباهم واحد، وأمهم واحدة، وربهم واحد، وعلة خلق الله لهم واحدة هي العبادة فليكن مقصودهم واحدًا. والواقع أن البعض حمل النص هنا ما لا يحتمل فذهب إلى أن الصلاح هو الأصل الذي خلق عليه البشر واستند في البداية على العقل. ولم تكن أسباب انحراف الفطرة السليمة متوفرة وترتب على الاستقامة في الآباء دوام الاستقامة في الأبناء. وكان نوح وليس آدم أول الرسل وأن آدم نبي صالح أوحى الله إليه ما يهذب به أبنائه ويعلمهم الجزاء، وهذا كلام لا يقوم على ساق.

فلا دليل على تغيير طبيعة الإنسان، وهو لا يوضح كيف حدث توريث الصلاح وكيف انقلب الحال، والاستشهاد بقدرة الخلق على توريث الفساد ومغاير لقدرتهم على توريث الصلاح؛ لأن الصلاح يحتاج إلى منهج من خارج الإنسان. ومقولة التفرقة بين النبي والرسول لا أساس لها أكثر من كون النبي نبي (بما أنه هو نفسه مكلف) وهو رسول (بما أنه مبلغ للغير) فالقرآن يستخدم النبي في الغالب مرادًا به الرسول. انظر: محمد الطاهر بن عاشور، مرجع سابق، ج ٢، ص ٣٠١ – ٣٠٨، وقارن مع: سعيد حوي، *الأساس في التفسير*، القاهرة، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨٥، ج ١ ص ٤٩٥ – ٤٩٧.

٤١ ـ ابن كثير، مرجع سابق، ج ٤، ص ١٢٧، وسيد قطب، مرجع سابق، ص ٣١٨٨.

٤٢ ـ آل عمران: ١٠٤ – ١١٠ ، ١١٣.

٤٣ ـ نظام الدين الحسن النيسابوري، مرجع سابق، ص ٧٩٩ – ٨٠١، أبو حيان الغرناطي، مرجع سابق، ج ٣، ص ٢١ ويأتي تكليف أمة محمد (ص) بأن يكونوا كلهم (أمة) أو أن ينشئوا من صفهم (أمة الأمة) الداعية إلى الخير والآمرة بالمعروف والناهية عن المنكر بالدعوة إلى اتباع ملة إبراهيم، والتذكير بأن أول بيت وضع للناس هو البيت الحرام وتقرير فريضة الحج إليه والأمر بالتقوى، والإشارة إلى أن فعل ذلك سيؤدي إلى استهداف دعاة التشيع والفرقة لتلك الأمة ويطمئنها بأن إضرارهم لها لن يتعدى الأذى ما حرصت تلك الأمة على الثبات على منهج الإسلام الخالص، ولم تقلد أهل الكتاب، وحكمت شرع الله في أمرها كله بلا شائبة، لتحوز منه الألفة بين القلوب المؤسسة لأخوة في الله تتصاغر في ظلها كل الخلافات، ويتسنى في ظلها مواجهة شهوات وهوى من لا يرضيه وجود هذه الأمة ويريد أن يجعلها مثله عبدة للدنيا والهوى، يدل أن تكون أمة وسطًا مسلمة لله وشرط هذه الريادة هو إتمام ما تلقته هذه الأمة من ربها من كلمات أسوة بما كان من إبراهيم. انظر: سيد قطب، مرجع سابق، ص ٤٣٢ – ٤٥٢.

٤٤ ـ أبو حيان الأندلسي الغرناطي، مرجع سابق، ج ١، ص ٤٣٢ – ٤٤٣ ويرى الإمام محمد عبده أن (منكم) تشمل الأمة كلها، والقول بالبعض لوجود جاهلين لا يعرفون الأحكام غير مسلم به؛ لأنه لا ينطبق على ما يجب أن يكون عليه المسلم من العلم. انظر: محمد رشيد رضا، مرجع سابق، ج ٤، ص ٢٧.

٤٥ ـ محمد رشيد رضا، مرجع سابق، ج ٤، ص ٢٧ – ٤٩.

٤٦ ـ الحسن النيسابوري ، مرجع سابق، ج ٢، ص ٨٠٥ – ٨٠٨ ويشير البعض إلى احتمال انسلاخ (كنتم) عن الزمان، وإخراج هذا الأمة إشعار بالحدوث والتكوين المستمر. انظر: الطباطبائي، مرجع سابق، ج ٣ ص ٣٧٦-٣٧٧.

٤٧ ـ ابن الجوزي، مرجع سابق، ص ٤٣٨ – ٤٣٩.

٤٨ ـ المرجع السابق، ص ٤٤٣.

٤٩ ـ أحمد بن عبدالحليم، ابن تيمية، *دقائق التفسير*، تحقيق د. محمد السيد الجلنيد، بيروت، مؤسسة علوم القرآن، ١٩٨٤، ج ١، ص ٣١٧.

٥٠ ـ محمد بن علي الشوكاني، *فتح القدير*، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨٣، ج ١، ص ٣٧٤، والزمخشري، مرجع سابق، ج ٢، ص ٢١١.

٥١ ـ سيد قطب، مرجع سابق، ج ٢، ص ٦٥٧ – ٦٦٢.

٥٢ ـ المرجع السابق، ج ٢، ص ٨٨٧ – ٨٩١. ويقول الشوكاني: إن الله ابتلى البشرية باختلاف الشرائع باختلاف الأوقات، هل يذعنون؟ فاختلاف الشرائع هو لهذه العلة أي للابتلاء والامتحان لا لكون مصالح العباد مختلفة باختلاف الأوقات والأشخاص، واستباق الخيرات هنا التسليم بالانتقال من الشريعة المنسوخة إلى الشريعة الناسخة. ووصف الآية (٢٤) من سورة فاطر لرسول كل أمة سابقة بأنه (خلا) دليل على أن الشريعة

التي يأتي بها اللاحق تنسخ ما قبلها، انظر: الشوكاني، مرجع سابق، ج ٢، ص ٤٨ وانظر: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، *جامع البيان عن تأويل آي القرآن*، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٤، ج ٦، ص ٢٦٩ – ٢٧٢.

٥٣ ـ ابن جماعة، مرجع سابق، ص ٢٤٩، وانظر: الطبرين مرجع سابق، ج ٦، ص ٣٠٦ .

٥٤ ـ محمد بن علي الشوكاني، مرجع سابق، ج ٢، ص ٥٨، وابن الجوزي، مرجع سابق، ج ٢، ص ٣٧٤ – ٣٩٥.

٥٥ ـ سيد قطب، مرجع سابق، ص ١١٥١ – ١١٦٩، نظام الدين النيسابوري، مرجع سابق، ج ٢، ص ١٣٠١.

٥٦ ـ الطبرسي، *جوامع الجامع*، مرجع سابق، ج ١، ص ١٢١، محمد الطاهر بن عاشور، مرجع سابق، ج ٦، ص ٢١٣، ٢١٧، سعيد حوي، مرجع سابق، ج ٣، ص ١٦٢١، وابن الجوزي، مرجع سابق، ج ٣، ص ٣٥.

٥٧ ـ الأعراف: ٣٤، ٣٨، ١٥٩، ١٦٤، ١٨١.

٥٨ ـ ابن الجوزي، مرجع سابق، ج ٣، ص ١٩٢، النيسابوري، مرجع سابق، ج ٢، ص ١٣٣٧.

٥٩ ـ محمد رشيد رضا، مرجع سابق، ج ٢، ص ٤٥٩ – ٤٦٠، ص ٤٩١- ٤٩٥ والشواهد السالفة الذكر عن دوام (أمة قائمة) و(أمة مقتصدة) دليل على أن الأمة المسلمة لم تنقرض في أي وقت ولن تنقرض أبدًا، وهي كما تجددت بالرسالات المتعاقبة بعد فترات الفترة، تتجدد على رأس كل قرن بالمجددين من أمة الإجابة منذ وفاة النبي محمد(ص) انظر: أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة، *الجامع الصحيح*، تحقيق: كمال يوسف الحوت، بيروت، ١٩٨٧ ص ٤٠٤، ص ٤١٠ – ٤١٢، الأحاديث أرقام ٢١٦٥، ٢١٧٦، ٢١٨٠، وانظر أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة، *تأويل مختلف الحديث*، تصحيح: محمد زهيري النجار، بيروت: دار الجيل، ١٩٧٢، ص ١١٤ – ١١٥، ص ١٨٣، ص ٤٧٨، ص ٦٨٣ – ٦٨٤.

٦٠ ـ نظام الدين النيسابوري، مرجع سابق، ج ٢، ص ١٣٨١ وهذه أخوة الدين والملة. والأخوة هي وحدة المقصد، وهي أساس تشكل الأمة المسلمة في الدنيا والآخرة، وأساس تشكل الأمم غير المسلمة في النار، والعلاقة بينهم في الدنيا علاقة ولاء وتضامن، وفي الآخرة علاقة تلاعن لأن بعضهم ضل باتباع بعض، وذروة التلاعن تكون بين آخر (أمة أخت) وأول (أمة أخت)، ووزرهما متكافئ: الأولى على الكفر والإغراء به والأخيرة على الكفر والاتباع. انظر: ابن الجوزي، مرجع سابق، ج ٣، ص ١٩٥ محمد رشيد رضا، مرجع سابق، ج ٣، ص ٣٥١ – ٣٥٧، ص ٤٦٤.

٦١ ـ نظام الدين النيسابوري، مرجع سابق، ج ٣، ص ٨١٠، ص ١٤٧٣، ابن جماعة، مرجع سابق، ص ٢٦٤.

٦٢ ـ ابن كثير، مرجع سابق، ج ٢، ص ٣٥٨ – ٣٥٩ سيد قطب، مرجع سابق، ج ٣، ص ١٣٦٣.

٦٣ ـ يشير الطبري إلى أن السبب في تفرقتهم أسباطًا هو اختلافهم في الدين. انظر: الطبري، مرجع سابق، ج ١٠، ص ٨٩. وسياق الآية: ١٦٠ من سورة الأعراف يؤكد ذلك، فقوله تعالى ﴿وقطعناهم أثنتي عشرة أسباطاً أمماً﴾ تتضمن كمون الفرقة في التقطع على أساس العرق. فالآية تشير إلى اثنتي عشرة أمة سبطية (عرقية). بل

إن جمع أمة وجمع سبط، وورود (اثنتي عشرة) قبلهما رغم ذلك دليل على كمون مقدر هو (فرقة) كحتمية يقود إليها اتخاذ السبط ناظمًا للأمة عن إرادة أو بلا إرادة. انظر: محمد كمال مهدي الشيخ *المشبهات بالمفاعيل، والمجرور*، القاهرة، كلية دار العلوم، ٢٠٠١، ص ١٠٨ ومع ذلك فإن الآيات ١٥٩، ١٦٤ – ١٦٨ من سورة الأعراف تبين بقاء بذرة استعادة الأمة المسلمة لله في ثنايا الأمم العرقية. وحدوث هذا الداء وارد والنجاة منه ممكنة وسبيلها الوحيد هو العودة إلى جعل ناظم الأمة الوحيد هو الإسلام. انظر: الطبري، مرجع سابق، ج ١٠، ص ٨٩ ، ٩٤، سيد قطب، مرجع سابق، ج ٣، ص ١٣٨٦ – ١٣٩١، وانظر: د. محمد عبدالعظيم الزرقاني، *مناهل العرفان في علوم القرآن*، القاهرة، عيسى البابي الحلبي، ج ٦، د. ت، ص ٣٩٠.

٦٤ ـ ابن الجوزي، مرجع سابق، ج ٣، ص ٢٩٤.

٦٥ ـ يونس: ١٩، ٤٧، ٤٩.

٦٦ ـ ابن الجوزي، مرجع سابق، ج ٤، ص ١٦، ص ١٧، ص ٣٧، الطبري، مرجع سابق، ج ١١، ص ١٢١ – ١٢٢.

وتشير عدة آيات في القرآن إلى أن لكل أمة أجل محدد. انظر: الأعراف: ٣٤، والحجر: ٥، والمؤمنون: ٤٣ كما أشارت آيات عديدة إلى خلو أمة وقيام غيرها. انظر: الرعد: ٣٠، فصلت: ٢٥، والأحقاف: ١٨.

٦٧ ـ هود: ٨ ، ٤٨، ١١٨.

٦٨ ـ ابن الجوزي، مرجع سابق، ج ٤، ص ١١٦، ص ١٧١ – ١٧٢ وترد (أمة) بعد ذلك في (يوسف:٤٥) مشيرة إلى إحدى سلبيات العزة والتمكن، حيث تستخدمه بمعنى نسيان الواجب سنوات، للدلالة على أن نعمة الجماعة قد تؤدي إليه. انظر: سيد قطب، مرجع سابق، ج ٤، ص ١٩٩٣، ابن كثير، مرجع سابق، ج٢، ص ٤٨١ وترد في (الرعد: ٣٠) مشيرة إلى حلول (أمة محمد) مكان أمم خلت، وتحدد النسق القيمي للأمة المسلمة بالوفاء بالعهد وعدم نقض الميثاق والصبر على النعمة والعز، وعلى حماقة الناس وجهالتهم وتسليم الأمر لله ومقابلة السيئة بالحسنة وإقامة الصلاة والإنفاق في سبيل الله سرًا وعلانية، وترد (أمة) في (الحجر:٥) مبينة سنة الأولين في العناد وإمكانية تحصيل أمة ما للثروة والتمكن في الأرض رغم عدم استقامتها، وأن التوقف عند حد الصلاح المادي يفضي إلى الطغيان والفساد في الأرض وهلاكها بانقضاء أجلها المحدد. انظر: سيد قطب، مرجع سابق، ج ٤، ص ١٩٤٦، ص ٢٠٦٠، ص ٢١٢٦، ص ٢١٢٩.

٦٩ ـ النحل: ٣٦، ٦٣، ٨٤، ٩٢، ٩٣، ١٢٠.

٧٠ ـ سيد قطب ، مرجع سابق، ج ٤، ص ٢١٧٠، ٢١٩٢، ٢٢٠٠ – ٢٢٠١ ابن كثير، مرجع سابق، ج ٢، ص ٥٩٦ – ٥٨٦ ، ص ٥٩١ – ٥٩٢.

٧١ ـ ابن الجوزي، مرجع سابق، ج ٥، ص ٣٨٦، سيد قطب مرجع سابق، ج ٤، ص ٢٣٨٤ – ٢٣٩٦، ص ٢٤٦٩، أبو حيان الغرناطي، مرجع سابق، ج ٦، ص ٣٣٧ – ٣٣٨. وكما أن للفرد أمًا واحدة على سبيل

الحقيقة فإن ولاءه الأعلى يجب أن يكون لأمة واحدة على سبيل الحقيقة تتضمن كل معاني الأمومة، ويمثل ما عداها مجرد أعضاء في جسدها أو غذاء لها، وهو إن سمي أمة فعلى سبيل المجاز العابر.

والملاحظ أن موضعي (وحدة الأمة) في سورتي الحج والمؤمنون لا يتوسطهما إلا إشارة لأمة مقرونة بالأجل وعاقبة التكذيب واختصاص الله كل أمة بمنسك ومنهج. انظر: المؤمنون ٤٣، ٤٤، الحج: ٣٤، ٦٧ وانظر: سيد قطب، مرجع سابق، ج ٤، ص ٦٧٢٣ – ٢٤٤٢ وما من نبي أدرك زمن آخر إلا ونصره كما آمن لوط لإبراهيم وأيد دعوته إذ كان في زمانه، كما أيد السابق اللاحق وشهد اللاحق للسابق انظر: محمد رشيد رضا، مرجع سابق، ج ٣، ص ٣٥٠ – ٣٥١.

ويرد الأصفهاني وصف النبي بالأمي إلى شدة تعلقه بأمته وكثرة ما كان يقول: أمتي أمتي. أبو موسى محمد بن أبي بكر الأصفهاني، *المجموع المغيث في غريبي القرآن والحديث*، تحقيق عبدالكريم الفرماوي، مكة مركز البحث العلمي وإحياء التراث، د.ت، ص ٩٠، وانظر في مفهوم وحدة الأمة: أبو المعلي الجويني، *غياث الأمم في التياث الظلم*، تحقيق د. مصطفى حلمي، د. فؤاد عبدالمنعم أحمد، الإسكندرية، دار الدعوة للطبع والنشر، ١٩٧٩، ص١٤٣.

٧٢ ـ ابن كثير، مرجع سابق، ج ٣، ص ٣٧٧ - ٢٧٨.

٧٣ ـ المرجع السابق، ج ٣، ص ٣٨٤ – ٣٨٥.

٧٤- ابن كثير، مرجع سابق، ج ٣، ص ٥٥٣ – ٥٥٤، ج ٤، ص ٧١.

٧٥ ـ المرجع السابق، ج ٤، ص ١٥٢ – ١٥٣ ويكون معيار الفرز هو: مقصود كل أمة في حياتها الدنيا. انظر في ذلك: العنكبوت: ١٨، فصلت: ٢٥، الأحقاف: ١٨، انظر: سيد قطب، مرجع سابق، ج ٥، ص ٢٧٢٧، ص ٣١١٩ ، ص ٣٢٦٤.